

الوهابية

نقد وتحليل

د. همامون همتي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهاية ﴾

الوهابية

نقد وتحليل

د. همايون همتي

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهابية ﴾

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهاية ﴾

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم	٩
كلمة بمثابة مدخل الى البحث	١٣
الاستعمار العالمي واصطناع المذاهب للتفريق	١٦
اهداف الاستعمار وما يقف بوجهها	١٦
روح تعاليم الاسلام	١٧
الاستعمار يبحث عن وسيلة	١٩
الاستعمار واصطناع الفرق	١٩
الفرقة الشيخية	٢١
الفرقة الوهابية	٢٣
المصادر الأولى للفكر الوهابي	٢٥
ابن تيمية	٢٥
عقائد ابن تيمية	٣٥
التوحيد عند ابن تيمية	٣٥
توسيع دائرة الكفر والشرك	٣٦
الاعتقاد برؤية الله وإثبات الجهة لذاته سبحانه	٣٧
نقد مقولة ابن تيمية في رؤية الله رؤية حسية	٣٨

- ٤٠ _____ القول بنزول الله إلى السماء الدنيا
- ٤٢ _____ القول بعدم لزوم العصمة للأنبياء قبل أن يبعثوا
- ٤٦ _____ القسم بغير الله
- ٤٧ _____ توضيح القسم بغير الله
- ٤٧ _____ التوسل بالنبي (ص) والتشفعُ به وطلب الحاجات
- ٤٨ _____ توضيح التوسل بالنبي (ص)
- ٥٠ _____ ابن قيم الجوزية
- ٥٤ _____ المذهب الوهابي ومؤسسه
- ٥٨ _____ طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
- ٥٩ _____ نهاية ابن عبد الوهاب
- ٦٠ _____ مؤلفات محمد بن عبد الوهاب
- ٦٥ _____ نقد وتحليل لأسس العقيدة الوهابية
- ٦٨ _____ شبهة الشرك
- ٦٨ _____ التوحيد ومراتبه
- ٦٨ _____ ١ - التوحيد في الذات
- ٦٩ _____ ٢ - التوحيد في الصفات
- ٦٩ _____ ٣ - التوحيد في الأفعال
- ٧٢ _____ ٤ - التوحيد في العبادة
- ٧٥ _____ الشرك وأقسامه
- ٧٥ _____ ١ - الشرك في الذات
- ٧٥ _____ ٢ - الشرك في الصفات
- ٧٦ _____ ٣ - الشرك في الأفعال
- ٧٧ _____ عالم الخليفة له نظام
- ٧٩ _____ لغة ظاهر الشرع المقدّس في هذا الباب
- ٨٢ _____ لنتدبر آيات القرآن الكريم بهذا الشأن

٨٧	الله لا يحتاج الى «الوسائط»
٨٨	الحُدُّ بين التوحيد والشرك
٩٥	الوهابية وإنكار الواسطة في عالم الوجود
١٠٤	التوسل نُغْوِيّاً
١٠٤	التوسل في الفطرة
١٠٦	التوسل في القرآن
١٠٩	الشفاعة
١١٠	اعتراضات وشبهات
١١٢	ضعف القانون
١١٤	أنواع الشفاعة
١١٤	نقض القانون
١١٦	حفظ القانون
١١٩	شفاعة المغفرة
١١٩	جاذبية الرحمة
١٢١	مبدأ التطهير
١٢١	مبدأ السلامة
١٢٣	علاقة المغفرة بالشفاعة
١٢٤	شروط الشفاعة
١٢٥	الشفاعة من الله
١٢٧	التوحيد والتوسل
١٢٨	أجوبة الاعتراضات
١٣١	الوهابيون وتفكير المسلمين
١٣٣	الوهابيون وانتهاكهم حرمة المسلمين.....
١٣٦	الوهابيون يعصون أمر الله
١٣٨	موقف الإسلام الصريح

- ١٤٢ _____ هتك شخصية المؤمن
- ١٤٢ _____ الإفتاء على المؤمن
- ١٤٣ _____ فتاوى العلماء ضد تكفير المسلمين
- ١٤٨ _____ مذبحه المسلمين في كربلاء على أيدي الوهابيين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يتناول هذا الكتاب المذهب الوهابي بالنقد والتحليل. ان المذهب الوهابي، الذي استولده محمد بن عبد الوهاب، باستلهاهم افكار أشخاص مثل (ابن تيمية) و (ابن قيم الجوزية)، مذهب منحرف وسطحي وبعيد عن تعاليم الاسلام المحيية السامية. انه منذ ولادته لم يثمر سوى التفرقة والدمار والتخريب ونشر الفساد في العالم الاسلامي وبين المسلمين. هذا المذهب، الذي يزعم أنه شديد التمسك بالتوحيد الخالص، ويستنكر كل ألوان الشرك وعبادة الأصنام، ينهمك عمليا في التساوم مع رؤوس الكفر والشرك في عالم اليوم. بل حتى من الناحية النظرية، وعند التحليل العميق، يتبين بكل وضوح أنه، على عكس كل تلك المزاعم الغريبة والاسطورية، ليس سوى مذهب من المذاهب الملوثة بالشرك، ولون من ألوان المادية والسطحية وعبادة الظاهر، وأن ادعاءاته التي يخدع بها العامة من الناس ليست سوى رسوم على سطح الماء.

يتميز هذا المذهب، من حيث الأسس العقائدية، بالبدائية والضعف التام، ويحمل مفاهيم سطحية جداً وواهية عن آيات القرآن والروايات والأخبار الوهابية، باختصار، مذهب لا ينظر إلا إلى وجهة واحدة يعبد الظاهر، ويدعو الى الهدم، وينشر الفساد، وقد كانت له آثار مشؤومة دائماً في عالم الاسلام،

ولم يثمر للمسلمين والمستضعفين في العالم حتى الآن سوى التفرقة، وتمزيق وحدة صف أبناء التوحيد، وتقوية جبهة الكفر والإلحاد.

إننا نؤمن بأن العقيدة الوهابية المنحرفة والاستعمارية — التي ظهرت الى عالم الوجود بأمر مباشر من وزارة المستعمرات البريطانية على يد محمد بن عبد الوهاب — هي اليوم من أمضى أسلحة الاستعمار الدولي والاستكبار العالمي ضد المسلمين كافة. إن تعاليم هذا المعتقد السطحي المنحرف تقف حجر عثرة ضخماً في طريق وحدة المسلمين واتحاد أصحاب القبلة الواحدة في العالم. وأي ضرر أشد وأبلغ — في هذا العالم المضطرب الذي تشتت فيه حاجة المسلمين وتزايد يوماً بعد يوم إلى وحدة الصفوف التي يشعرون بافتقارهم إليها بكل جوارحهم ومشاعرهم — من أن ينبري فريق باسم التوحيد ومحاربة الشرك إلى اتخاذ محاربة أهل التوحيد ومصادقة أهل الشرك ديدناً لهم، يزقون صفوف المسلمين بذرائع خاوية وكاذبة، مثل محاربة الشرك وعبادة الأصنام، وذلك لكي يمهّدوا الطريق لشيطان الاستعمار المتعطش للدماء ليوغل في سلب ثروات المسلمين ونهبها دون عناء، وليستحوذ على المزيد من مصادر الثروة الغنية عند المسلمين.

إن ما يمكن أن يقال عن الوهابية كثير، ولكننا لضيق المجال اقتصرنا على تناول أهم افكار هذه الفرقة وعقائدها، واخضعناها للتحليل العقلي والنقلي والبراهين الدامغة الصريحة، مستندين إلى آيات كتاب الله النيرة، وأحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام — وهم أهل بيت النبوة، ومصابيح الهداية، وحاملو ألوية مدرسة التوحيد — لكشف بطلان مزاعم الوهابيين وتوضيح معتقداتهم المتناقضة للرأي العام.

وعلى الرغم من أننا لم نؤد الموضوع حقّه كما يجب، إذ كان الواجب أن نتناول جميع عقائدهم وأفكارهم، كبيرها وصغيرها، بالنقد والتحليل، إلا أن هذا الذي قلناه وبجئناه يكفي الحضيف المنصف ليميز الحق من الباطل، ويدرك بطلان مزاعم الفرقة الوهابية وزيف ادعاءاتها.

لقد سعينا في هذا البحث الى الاعتماد على مصادر من الدرجة الأولى،

مثل مؤلفات رؤوس الفرقة الوهابية وكتبهم، تناول أفكارهم فيها بالنقد حتى لا يبقى موضع لإنكار منكر.

أما النظام الحاكم على الحجاز — معقل الوهابية — فإننا لم ندخله في البحث لئلا يظن القارئ أننا إنما نواجه مجرد نظام منحرف سياسياً واجتماعياً، بل سعيانا إلى أن نبين أن النظام الفكري الوهابي نظام خاو واستعماري ومنحرف، وهو مدان ومرفوض عقلاً ومنطقاً. ونتيجة لهذه النظرة يدرك القارئ جيداً أن طراز الفكر الغلط في مدرسة منحرفة لا يمكن — عند التطبيق بصورة نظام سياسي واجتماعي — إلا أن يؤدي إلى الضلال والهلاك والتبعية للأقطاب الاستعمارية في العالم، واتخاذ مواقف غير سليمة. إن أفكار الوهابيين الغلط، التي تتجسد في نظام يحكم الحجاز، مركز الوهابية، لم تنتج سوى الانحراف والفساد، وذلك لأن وضع فكرة مغلوطة في التطبيق لا يمكن أن يؤدي إلا إلى نتائج مغلوطة ومنحرفة. أيمن لفكرة ينضح الخطأ والانحراف من كل جوانبها أن توضع موضع التطبيق وتحقق في قالب نظام اجتماعي، ثم تكون نتائجها سليمة وطيبة؟ ألا يرتبط الفكر والعمل والواقع بعض ببعض ارتباطاً لا ينفك؟ كيف يمكن للفكر الغلط أن يؤدي إلى نتيجة صحيحة؟ إن هذا الأمر مرفوض وباطل من حيث المقاييس العقلية والمنطقية.

فإذا كان الأمر كذلك — وهو لا شك كذلك — فإننا سرعان ما ندرك السبب في قيام بلد هو حصن الوهابية باتخاذ هذه المواقف المنحرفة وغير السليمة، كالارتقاء في أحضان أمريكا والركوع أمام القوى العظمى، ولكنه بالنسبة لإيران الإسلامية الشورية، مهد الحرية والتوحيد والمعنويات، ومعقل الثورة والكفاح والنضال ضد الظلم والشرك والإلحاد وعبادة الأصنام، يقف مثل هذه المواقف، وما ذلك إلا نتيجة للأسس الفكرية الغلط التي يتبنّاها قادة الوهابية، إذ اننا نعتقد أن الفكر والعمل لا انفصام بينهما، فالعمل هو الذي يكشف عما وراءه من فكرة وعقيدة، وهي تتجلى فيه. كل امرئ يعمل على وفق ما يفكر، وعمل كل امرئ يحكي عن عقيدته.

لذلك فإن جذور المواقف السياسية الخطأ والمتناقضة والمتلونة التي يتخذها الوهابيون ينبغي أن نبحث عنها في عقائدهم المنحرفة وأفكارهم غير الصحيحة. نأمل أن تكون هذه الخدمة البسيطة، مقبولة عند الله وعند أوليائه الكرام عليهم السلام، وأن تنفع العقلاء والباحثين عن الحقيقة، وأن تؤدي عملياً إلى المزيد من الوحدة بين مسلمي العالم، وإلى خيبة مؤامرات المستعمرين، وإضاءة أذهان المسلمين، وعشاق انتصار الإسلام، والمتطلعين إلى مجده وعظمته، فما كان لكاتب هذه السطور من هدف غير هذا. والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

د. همايون همتي

كلمة بمثابة مدخل إلى البحث

هدفنا في هذه الرسالة هو البحث بتعمق في الوهابية. في هذا التحقيق الملخص والعَجَل سنتناول باختصار خصائص هذا المذهب وما فيه من مثالب وظاهرات مضرة. فالوهابية تدعي أنها تسعى لإنكار كل لون من ألوان الشرك، ولهذا فهي لا تحيز الزيارات والتوسل وعرض الحاجة وطلب قضائها من الأنبياء والأولياء، وتمنع زيارة قبورهم وقبور الخاصة والأطهار والأتقياء. إننا سنرد، بمشيئة الله وعونه، على هذه الأمور في الصفحات التالية، وندرسها ونبحث فيها. ولكننا الآن وفي مطلع الكلام نقولها صريحة: إن مزاعم الوهابيين عن مكافحة الشرك قد انقلبت عند التطبيق العملي إلى قتل المسلمين والتخريب والهدم وإشعال نيران الفتنة، حتى يمكننا القول بأن هذا السلوك، بتعاليمه الظاهرية الفظة والمفرقة، ليس سوى حربة قاتلة بيد الاستعماريين وأعداء الإسلام الألداء الذين يستعملون الوهابية في ميدان السياسة الاستكبارية للحيلولة دون وحدة المسلمين. لا بدّ من القول صراحة أن تعاليم الوهابية الخاطئة والسطحية والمتمسكة بالقشور الظاهرية إنما هي أهم عائق يقف في طريق تحقق هدف المسلمين في الوحدة، وأكبر باعث على اقتتال المسلمين وتشتتهم وتمزق صفوفهم. إن هذا العداء للمسلمين وخاصتهم واعتبارهم كفاراً ومشركين، وضرب الإخوة في الإيمان وشتهم وإيذاءهم، يكشف عن ملمح قبيح ورهيب

من ملامح الوهابية التي تظهرها كفرقة هدامة وفوضوية تحمل شعار الهدم والتخريب والتفرقة والقسوة والوحشية.

إن وضع السيف في رقاب الناس المتدينين الذين يعبدون الله، بحجة أنهم مشركون ويعبدون الأصنام، وهدم قبور رجالات الإسلام والأطهار بدعوى رفع شعار إقامة التوحيد ومحاربة الشرك، يعتبر من أعمال الوهابيين الشائعة. إن أتباع هذه الفرقة، بدلاً من أن يحاربوا الاستعمار الوحشي المتعطش للدماء، وبدلاً من أن يناضلوا ضد الاستكبار العالمي والقوى الكبرى والناهبين والمجرمين الرسميين الدوليين، يشرعون مخالفتهم بوجه إخوانهم في الدين من المسلمين. وبدلاً من أن ينهضوا ضد الظالمين والصوص العالميين الذين لا هم لهم إلا القضاء على دين الإسلام المقدس، وآلا محو تعاليم القرآن، يشتمرون عن سواعدهم لقتل المسلمين ومحاربتهم بحيث أصبح انتهاك حرمة أموال المسلمين وأرواحهم ونواميسهم، ووصمهم بالكفر وتحقير سائر المسلمين وتكفيرهم، جزءاً من العقائد الأساس لأتباع هذه الفرقة.

إنهم بدلاً من أن يصرخوا بوجه الجزارين والجبارين في التاريخ، يصرخون بوجه المسلمين ويوغلون في تقتيلهم. وبدلاً من أن ينهضوا لمحاربة أعداء الله، نراهم قد نهضوا بكل مالديهم من عِدَّة وعِدَّة لمحاربة الذين يؤمنون بالله وكتابه ورسوله ويلتزمون الإسلام أشد التزام، فما الذي يريده الاستعمار العالمي غير هذا؟ لا هدف للاستعمار سوى ضرب الإسلام والقرآن، وسوى محو تعاليم الإسلام الموصلة إلى شاطئ النجاة والرشاد وحل المشكلات، وسوى إلقاء المسلمين بعض ببعض وضرب بعضهم ببعض، والنفخ في الاختلافات وإيجاد التفرقة والخضام لتبديد قواهم. أتراه يهدف إلى غير هذا؟ وهل للوهابية اليوم دور غير تحقيق أهداف الاستعمار هذه وتنفيذ مخططات الاستكبار؟ إن الوهابية اليوم، أرادت أم لم ترد، وشاءت أم لم تشأ، ومع الأسف، تعمل على إدارة طاحونة الاستعمار بكل قواها لتحقيق آماله الشيطانية. إن الاجتهاد في إثارة الخلافات وإيجاد التفرقة بين صفوف المسلمين الذين يجب أن يكونوا يداً واحدة على الكفار والظالمين وأعداء

الله، لا يخلف سوى تقوية الاستعمار العالمي واسناد جبهة الكفر والشرك وهؤلاء الذين عليهم أن يبذلوا كل قواهم في تحقيق تلك الأهداف الاسلامية التحريرية الشريفة، نراهم بدلاً من ذلك يضعون يد الصداقة في أيدي الكفار والمشركين، ويعقدون عهود الأخوة مع أعداء الاسلام والقرآن ويرجحونهم على إخوانهم في الدين ومحبتهم، ولا يرونهم مشركين، بل موحدين، بينما ذلك المسلم الطاهر القلب والمسكين الذي يقف عند قبر رسول الاسلام العظيم (ص) يئن ويتضرع من ظلم أولئك الأشقياء المجرمين أنفسهم؛ يكون هو المشرك العابد للأصنام! عجباً لزعمهم أن قبر رسول الاسلام المقدس صنم كبير، بينما هم يعتبرون انصواءهم تحت لواء الذل للقوى العظمى المجرمة شرفاً لهم ومدعاة لاعتزازهم ويرون الصداقة مع أعداء الدين مظهراً من مظاهر التوحيد وعبادة الله، ولكن التضرع لقضاء الحاجات عند أعتاب الكرام المقربين العارفين بالله والمؤمنين بالغيب الذين تتصل أسباب قلوبهم بالملكوت الأعلى، هو الشرك وعبادة الاصنام!

لاشك أن هذا لما يثير العجب، فلا بدّ من القول بأن الاسلام اليوم أيضاً غريب ووحيد حتى بين من يدعون الاسلام، نعم «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوني للغرباء»!

لقد لبس هؤلاء رداء الإسلام مقلوباً، فلم يدركوا شيئاً من أهداف الاسلام الأصيلة، وإلا فكيف يمكن لمن يحتمي بأحضان الكفار والمشركين والملحدّين أن ينطق باسم التوحيد؟ إن من يعقد أواصر السلام والصداقة مع الظالمين المجرمين، وينشط بكل قواه في ضرب الاسلام والمسلمين، أتى له أن يدّعي التوحيد والتوحيد في العبادة؟! إن عبادة الهياكل المتعفنة لمحترفي السياسة الدولية والتخضع والانحناء لهم ليس شركاً، ولكن التقدم بعرض الحاجات عند أعتاب سيد المرسلين ورسول رب العالمين — صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين — هو الشرك؟! الاستكانة إلى الضعة والهوان والعار لا يتعارض مع التوحيد، ولكن زيارة كبار أولياء الله وعرض الحاجة عليهم والاستلھام من أنفاسهم الطاهرة يتعارض مع التوحيد؟! أهذا هو معنى التوحيد في العبادة؟ هل

وضع اليد في أيدي الظالمين ودعاة الكفر لا يقوّض فكرة التوحيد، ولكن التوسل بالشفعاء المقربين، ووسطاء فيوضات الله تعالى، ومظاهر أسمائه وصفاته، هو الذي يضر بفكرة التوحيد؟!

إن الألم ليعتصر قلب الانسان، وإنه «والله يميت القلب» كما يقول الإمام علي (ع) حتى ليحق للدماء أن تفرور في قلب كل مؤمن ملتزم! سيأتي الكلام في الصفحات التالية على عقائد الوهابية وأفكارهم المعوجة وانحرافاتهم المبدئية، إلا أن هناك نقاطاً لابدّ من الإشارة إليها كمقدمة للبحث ولتهيئة ذهن القارئ الكريم للتمعّن أكثر في أقوالنا التالية والتعمّق في دراستها.

الاستعمار العالمي واصطناع المذاهب للتفريق

ليس ثمة شك في أن الاستعمار أو الاستكبار لم يبرح يبحث عما يمهّد له سبل فرض سلطته الشيطانية وتحكمه الأسود، وهو لم يزل يستخدم شعاره القديم «فرّق تسد». وإن من أهم الطرق التي يتحقق بها ذلك هو اختلاق جو فاسد من التكفير والتفسيق في المجتمع. لذلك فالاستعمار يأتي على رأس العوامل المهمة والرئيسية في بعث جو التكفير والتفسيق في المجتمع الاسلامي، وفي إيجاد روح سوء الظن بين الفرق الاسلامية، والصاق التهم الباطلة، وبث الافتراءات الكاذبة ضد رجالات الاسلام العظام، وخلق المذاهب المرفقة. ولسنا مبالغين ولا مغالين إن قلنا إن أنجح السبل التي اتبعها الاستعمار من أجل إضعاف قوى المسلمين والقضاء عليها هو سبيل إيجاد الاختلاف والتفرقة واصطناع المذاهب واختلاق الأنبياء!

ولكي نبين الأسباب التي حلت الاستعمار على السير في هذا السبيل، والأهداف التي يتوخاها منه، والعوامل التي استخدمها لتحقيق تلك الأهداف، لابدّ لنا من أن نهمّد لذلك بذكر بعض الأمور، ومن ثم نباشر بالدخول إلى موضوعنا الرئيس:

أهداف الاستعمار وما يقف بوجهها

تصطدم القوى الاستعمارية في مساعيها لبسط نفوذها على الدول الضعيفة

من أجل نهب ثرواتها المادية والمعنوية بموانع كبيرة، وما كان من السهل عليها يوماً أن تحتل بلداً لتجد أهله يستقبلونها بالاحضان، فهي، في أضعف الحالات، تواجه في بدء دخولها كثيراً من المشكلات والصعوبات^١. ولقد كانت هناك عوامل كثيرة تدفع بالناس للوقوف بوجه القوى الغازية الاستعمارية، كالقومية، واللغة، والثقافة، والدين. وكان لبعض هذه العوامل تأثيرات مؤقتة في مواجهة قوى الاستعمار، ثم ضعف تأثيرها بالتدريج وفقدت فاعليتها. أما العامل الوحيد الذي استطاع أن يثبت كسب منيع بوجه الأهداف الاستعمارية، فهو قوة نفوذ الدين بين الناس، وفي المقدمة يأتي الدين الإسلامي. وهذا أمر لم ينكره الاستعماريون أبداً. فنجد اليوم الذي وقف فيه ممثل الاستعمار العجوز في مجلس العموم البريطاني، حاملاً القرآن في يده، قائلاً: «... على أوروبا أن تعلم أنه مادام هذا الكتاب دليلاً وهادياً يعمل به المسلمون، لن يكون بإمكاننا أن نقيم دعائم سياستنا الاستعمارية في تلك البلاد...» وحتى هذا اليوم الذي بدأت تهب فيه أنسام الاسلام المنعشة، وتبشر إشعاعاته المثيرة بطلوع فجر النصر، تجمع القوى الجبارة الجشعة في العالم كله على القول بأن «الاسلام أضخم سد أمامها وأنه أكبر خطر يهدد مصالحها» وذلك لأن الاسلام يتميز بخصائص وسمات كل واحدة منها تقف كالجبل في طريق تحقيق الأهداف الاستعمارية، مما تخلو منه الأديان الأخرى. ومن بين تلك الخصائص الخصيصتان التاليتان^٢:

روح تعاليم الاسلام

إن تعاليم الاسلام المحيية وشعائره العبادية السياسية كانت دائماً خطراً على الشياطين المستعمرين وأهدافهم المشؤومة، وذلك لأن الإسلام يرفض كل

١ — للمزيد من الاطلاع راجع كتاب «جهرة استعمارگر جهرة استعمارزده» بقلم البيررمي وترجمة هما ناطق، ومؤلفات المجاهد الجزائري، فرانتس فانون.

٢ — يتذكر القراء الكرام أنه في اوائل انتصار الثورة الاسلامية العظيمة في ايران، ما فتى رؤساء البيت (الأسود) وكذلك مغتصبو فلسطين العزيزة يصفون الاسلام بكونه الخطر الكبير الذي يقف في طريق مصالحهم ومراميمهم، بل إنهم أعلنوها صريحة ورسمية بأن الخطر الشيوعي لا يمكن أن يقاس بخطر الاسلام عليهم.

أشكال الاستعمار والاستغلال، بأي صفة كانت، ويدينها، ويستنهض المسلمين لمحاربة الظلم والظالمين، ويدعو للنضال لإحقاق العدالة الاجتماعية في جميع الميادين على وجه الأرض، ولتحرير المستضعفين من العبودية والاستعمار، حتى رفع الفتنة والقضاء على مثيري الفتن. وبديهي أن لا يكون هذا النضال لتحرير المسلمين وحدهم فقط، بل هو من أجل خلاص جميع الشعوب المستضعفة المحرومة المعذبة في العالم وتحريرها.

وعلى هذا، يرى الاسلام أنه ملزم بمّدد العون والمساعدة إلى جميع حركات التحرر بما يستطيع: «(من أصبح ولا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم)» و «(من سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين! فلم يجبه فليس بمسلم)»^٣ و «(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)»^٤ و «(الذين يتربصون بكم)»^٥ و «(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)»^٦. ثم يطرح شعار التمسك بحبل الله باعتباره هو الحاكم المطلق «(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)»^٧ «(المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، ان اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده...)»^٨ «(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)»^٩ و المسلمون مسؤولون بعض أمام بعض، ويفضون بوجه الكفار ولا يدخلون معهم في مساومات، و «(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)»^{١٠}.

كان هذا المحتوى دائماً وأبداً مصدر إلهام وقوة للمسلمين في مواجهتهم

٣ — «(أصول الكافي)» ج ٢ ص ٦٤، «(باب الاهتمام بأمور المسلمين)».

٤ — الممتحنة: ١.

٥ — النساء: ١٤١.

٦ — آل عمران: ٢٨.

٧ — آل عمران: ١٠٣.

٨ — «(أصول الكافي)» ج ٢ ص ١٦٦، «(باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض)».

٩ — الفتح: ٢٩.

١٠ — الصف: ٤.

للظالمين والمستكبرين على امتداد التاريخ. لقد خلق الاسلام في صدر الاسلام، بمحتواه هذا، كل تلك الحركة والحماسة والإبداع والتغيير والثبات في محاربة الظلم. وإذا ما درسنا النهضة التي وقعت في هذا القرن الأخير، أدركنا بوضوح أكثر دور تعاليم الإسلام المحيية في تحريك الجماهير ضد الظلم والتعسف والاستكبار. فالصديق والعدو يعترفان، مثلاً، بالحركة التي بعثها الاسلام في ثورة الشعب الجزائري التحررية التي طردت الاستعمار الفرنسي من البلاد. وفي هذا يقول كاتبان معروفان، هما «كوليت» و«فرانسيس جونسون»:

«لأشك أنه كان للإسلام تأثير كبير في مطالبة الجزائريين بالحرية. ولقد أدرك الجزائريون منذ اليوم الأول من اعتداء الاستعمار عليهم أن هدف الفرنسيين النهائي هو القضاء على الإسلام، وعلى هذا الاساس أدركوا أن الاسلام هو طريق خلاصهم، وأن عليهم جميعاً أن يتمسكوا بالإسلام ليتحرروا»^{١١}.

كذلك هي هذه الحركة التي شهدناها في إيران بقيادة العالم المجاهد الفقيه العارف، روح ملحمة الحرية المقدسة، الامام الخميني (دام ظله)، والتي أثمرت حكومة اسلامية باسم الاسلام وبلاستناد إلى تعاليمه الموصلة إلى الحياة السعيدة. وباختصار، حيثما انتشرت هذه التعاليم وعمل بها شعب أصبح منيعاً واستطاع أن يقرر مصيره بنفسه، ولم يعد للاستعمار أو الاستكبار أمل في أن يبسط نفوذه على مثل ذلك الشعب.

الاستعمار يبحث عن وسيلة

وإذ رأى الاستعمار أنه أمام سد منيع لا يمكن اختراقه، أخذ بالبحث عن وسيلة ناجعة لمهاجمة هذا السد لتحطيمه والنفوذ إلى ما وراءه، فاستخدم كل ما يملك من قوى وإمكانات لإزالة هذا العائق، وجرب مختلف السبل لبلوغ هدفه.

١١ — «مذهبان» ص ٦٤، نقلاً عن «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» للدكتور مصطفى خالد. ولزبد من الاطلاع على دور الاسلام العجيب والعظيم في الحركة البطولية للشعب الجزائري المسلم راجع كتاب: «الجزائر ومردان مجاهد» تأليف حسن صدر، وكذلك مؤلفات الكاتب الثوري الفقيه فرانتس فانون.

ومن تلك السبل ما يلي:

١ - المواجهة المباشرة

أ - عن طريق المواجهة العسكرية المباشرة، مثل الحروب الصليبية و الاحتلال العسكري للبلدان الاسلامية، كما وقع بالنسبة لليبيا، والعراق، وأفغانستان، وإيران، والجزائر، وغيرها.

ب - عن طريق مهاجمة تعاليم الاسلام بتحريفها، وقلب أحكامه، واتهامه والافتراء على مقدساته.

٢ - المواجهة غير المباشرة

أ - ترويج الفحشاء والفساد بين المسلمين لإضعاف تمسكهم بالدين.

ب - إثارة المشاعر القومية والوطنية لتقسيم الأفراد والجماعات إلى فئات متباينة في البلدان الاسلامية.

ج - إيجاد التفرقة والاختلاف عن طريق نشر الاتهامات وسوء الظن والتكفير بين المسلمين.

ولا يخفى أنَّ تناول كل حالة من هذه الحالات بشيء من التفصيل والإسهاب يستوجب وقتاً أوسع، وفرصة أفضل، وهذا ما لا يتأتى لنا في هذه العجالة. ولكننا سوف نعالج حالة واحدة منها لمناسبتها مع البحث الذي نتناوله، وهي حالة اصطناع الفرق والمذاهب، ونجعلها مدخلاً إلى بحثنا الأساس بشأن المذهب الوهابي، آمليْن أن يطالع القراء الأعزاء ببصيرة أعمق وبنظرة أوسع بحوثنا التالية:

الاستعمار واصطناع الفرق

من أهم الخطوات التي خطاها الاستعمار العالمي وما يزال يخطوها لتحطيم عظمة المسلمين ومجدهم واتحادهم، وفصم عرى وحدتهم، وخلق جومن الاختلاف والتكفير وسوء الظن بينهم، هي محاولة اصطناع الفرق والمذاهب وصياغة الأديان المزيفة الاستعمارية، لكي يستطيع بلوغ هدفه في إيجاد التفرقة وبث التششت بين المسلمين، فضلاً عن القضاء على الاسلام ومعتقدات المسلمين

الدينية. لقد كانت الاوامر الصادرة من الاستعمار البريطاني العجوز إلى جواسيسه في البلدان الاسلامية على المنوال التالي:

«نشر العقائد والمذاهب المزيقة والمصطنعة في المناطق الاسلامية ضمن خطط مدروسة وواعية ومنظمة بحيث يصبح التبشير لها، بعد تقويمها، أرضية فكرية مناسبة بين طبقات الناس. يجب عدم التسرع... ونشر هذه المذاهب الموضوعية والتبشير لها، ويجب أن لا تقتصر على المناطق الشيعية وحدها، بل لابد أن تنشر بين الفرق الأربعة من أهل السنة مذاهب من هذا القبيل المذكور، حتى يمكن إيجاد الاختلافات والمنازعات الشديدة بين هذه الفرق، بحيث تدعي كل فرقة أنها هي التي تمثل الاسلام الصحيح، وأن الآخرين مرتدون وكفار يجب قتلهم...»^{١٢}.

واستناداً إلى هذه الأوامر، أخذ الجواسيس يدرسون بدقة ويتعرفون على المواقع الاجتماعية والسياسية في المجتمعات الاسلامية واتجاهاتها المتطرفة، وراحوا يخلقون الفرق المطلوبة لتحقيق أهداف أسيادهم الاستعماريين. وبديهي أن المستعمرين لم يقوموا بذلك بصورة مباشرة أبداً، بل كانوا لتنفيذه يبحثون عن أشخاص لا يتمتعون بقوة في الايمان والتقوى، وتكن فيهم ميول متباينة واتجاهات مختلفة، فكان الاستعمار يغدق على هؤلاء الإعانات المادية والمعنوية ويحثهم على تأسيس الفرق المختلفة. وكمثال على ذلك نشير هنا إلى فرقتين اثنتين تناسبان الموضوع الذي نعالجه:

الفرقة الشيعية

عندما كان العراق مركزاً للحوزات العلمية، صمم الاستعمار، من أجل الوصول إلى أهدافه، على اصطناع الفرق، فاختلق اتجاهين على طرفي نقيض من الإفراط والتفريط، الأول بصورة فرقة شيعية متطرفة فعالة في العراق، والثاني

١٢ — «مذكرات همفر» الفقرة ٦ ص ٨٠. وهذا الكتاب هو مذكرات الجاسوس الانجليزي مستر همفر عن ظهور الوهابية، نوصي القراء بمطالعته.

بصورة فرقة سنية متطرفة في الحجاز. الأولى أطلق عليها فيما بعد اسم «الشيخية» أنشأها شخص اسمه الشيخ أحمد الأحسائي وتلميذه السيد كاظم الرشتي. قامت هذه الفرقة برفع مقام الأئمة (ع) إلى حد التأليه، وطرحت كثيراً من الأفكار المغالية على هذا الصعيد. وهي فضلاً عن تمهيد الطريق أمام الفرقة المتطرفة الأخرى «الوهابية» لتوجيه الاتهامات إلى الشيعة وتكفيرهم في قوالب متعصبة متحجرة وجافة، دفاعاً فجاً عن النصوص الإسلامية، حاربت الأفكار العقلانية في الفلسفة الإسلامية، فكفرت كبار علماء الشيعة، مثل الملا صدرا، والملا محسن فيض الكاشاني^{١٣}.

لم يكن الشيخ أحمد الأحسائي قد درس الفلسفة، ولا يعرف شيئاً من العلوم العقلية. فأراد أن يتعرف على الفلسفة والعرفان في الإسلام، فراح يطالع كتباً في ذلك من دون إرشاد استاذ، فلا هو أدرك هذا ولا هو فهم تلك، ولكنه تصور نفسه رجلاً متبحراً في هذا الفن، وراح يضع الأسس لبعض المعتقدات، وأخذ يشتم في كتبه كبار فلاسفة الإسلام، كالملا صدرا الشيرازي، وعرفاء الإسلام، مثل محيي الدين بن العربي، بل إنه تجاوز ذلك إلى شتم أشخاص مجمع على احترامهم في عالم التفسير، مثل الملا محسن فيض الكاشاني، ونسب إلى هؤلاء الكثير من الافتراءات. فوصف محيي الدين بن العربي بأنه «ميت الدين» ووصف كتابه «الفتوحات» بـ «الختوفات» واعتبره كافراً وملحداً، وقال عن كتاباته: إنها هراء. وعن فيض الكاشاني قال: إنه من أهل الغي والضلال، وأطلق عليه اسم «مسيء» بدل «محسن» وقال: إن هؤلاء مخالفون لطريقة أهل بيت العصمة الذين «أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» ووصف نفسه بأنه من أهل «الكشف» و «الشهود والمعانية» وأنه يسير على هدى طريقة أهل بيت العصمة والطهارة. وخلال افتراءاته غير الصحيحة ينوّه بأمر يدرك منها كل

١٣ - «قصص العلماء» ص ٥٢ - ٥٣.

إنسان عاقل و مطلع على العلوم الإلهية أنه لا يفهمها ولا يعرف عنها شيئاً^{١٤}.
على الرغم من أن نشاط هذه الفرقة كان في العراق، الذي كان يومئذ
جزءاً من الدولة العثمانية، التي كانت نفسها سنية المذهب ومتعصبة، مع ذلك
فهذه الحكومة لم تشمل الشيخية بما كانت تحدد به نشاط علماء الشيعة، بل منحهم
حرية العمل أيضاً، وذلك لأن الذي يهتم الاستعمار وأيديه هو بث التفرقة بين
صفوف الأمة الإسلامية، والقضاء على أقطاب المقاومة فيها، بأية وسيلة كانت،
وعلى يد أي شخص كان.

الفرقة الوهابية

وبأزاء الشيخية، خلق الاستعمار فرقة سنية متطرفة باسم «الوهابية». لقد
عثر الانجليز في محمد بن عبد الوهاب على صفات منها حب الجاه، والضعف
الأخلاقي، والأفكار المتطرفة، فأدركوا أنه الشخص المناسب لتأسيس الفرقة التي
يريدون. وهكذا راحوا يرافقونه خطوة بعد خطوة، حتى وجدوا أن الفرصة مناسبة،
فأوعزوا إليه أن يعلن ميلاد المذهب الجديد. وبعد ذلك أمروه بالاتفاق مع عميل
معروف آخر من عملاء الاستعمار الانجليزي العجوز، وهو سعود بن عبدالعزيز،
وهيأوا لهما الإمكانات اللازمة لاجتذاب الأتباع. وفي غضون القيام بما عهد إليهما
يقعان تقتيلاً في الحجاج الشيعة، بل إن كل من لم يتقبل دينهم الجديد، شيعياً
كان أم سنياً، كان مصيره القتل والنهب. كل من كان يعتقد بزيارة الحرم
النبوي الشريف (ص) والأئمة (ع) يعاملونه على أنه «مشرِك» و «كافر».

وأخيراً استند الوهابيون إلى كتاب «شرح الزيارة» الذي كان قد وضعه
الشيخ أحمد الأحسائي، فغالى فيه بمقام الأئمة (ع)، وأجاز فيه لعن الخلفاء الثلاثة
وسبهم، فاستصدروا من بعض علماء أهل السنة فتوى بجواز قتل الشيعة. وعلى
الرغم من أن العراق جزء من الدولة العثمانية، فقد أعطتهم الحكومة العثمانية
الحرية في الإغارة من الحجاز على العتبات المقدسة والاعتداء على حرمة مرقد

١٤ - «إمام شناسي» للسيد محمد حسين الطهراني، ج ٥ ص ١٨٤.

الأئمة المعصومين (ع)، وقتلوا الناس وارتكبوا أعمالا وحشية، من ذلك أنهم قتلوا العديد من علماء الشيعة مع أنهم كانوا من معارضي الشيعة ومخالفهم.

ومما يثير العجب في حملة الإغارة وتقتيل العلماء هو بقاء دار السيد كاظم الرشتي، تلميذ الشيخ أحمد الاحسائي وخليفته ومروج كتابه المذكور، مصوناً لم يمسه أي أذى، بل أعلنوا بيته حرماً آمناً لمن دخله!

تقوم مبادئ الوهابية على أساس من تكفير المذاهب الإسلامية، وبثّ التفرقة بين المسلمين، ومحو آثار رسالة الاسلام الروحية، والتوافق مع الجبارين الاستعماريين. واليوم في الحجاز، موطن هذه الفرقة، توجه الاتهامات بالكفر والشرك بكل سهولة، وفي مراسم الحج يسمع الانسان أكثر مما يسمع من رجال الأمر بالمعروف ألفاظاً مثل «مشرك، كافر...». وقد ازدادت في الوقت الحاضر نشاطات هذه الفرقة الاستعمارية، ففي كل يوم يصدر عنهم كتاب أو مقال يتهجمون فيه على المقدسات الإسلامية، ويصرف عليه آل سعود مبالغ طائلة من بيع ثروة البلاد النفطية، انصياحاً لأوامر أسيادهم في منع وحدة المسلمين وبثّ الفرقة بينهم وتكفيرهم وتفسيق بعضهم بعضاً^{١٥}.

كلا المذهبين، الوهابي والشيخي، قاما على أساس من فكر غلط، فأثارا الفتن، وأراقا الدماء، وقتلا المسلمين. فمحمد بن عبد الوهاب أقام دعوته على أساس من رؤى (ابن تيمية) ونواياه. وكان هذا من عشاق (ابن تومرت) — الذي ادعى أنه المهدي في شمال أفريقيا وسادت أفكاره مدة قرنين أجزاءً من أسبانيا والجزائر وتونس والمغرب، ولقب بمهدي الموحدين — ثم تعاون مع (محمد سعود)، وراح سيفاهما وأسياف أتباعهما تقطر دماً، وحيثما اتجها جرت الدماء وسموا المسلمين بالكفرة، وقتلوا كل من لم يطعهم ويؤيدهم. لقد كانت فتنة الوهابية فتنة كبيرة و عجيبة حقاً، مما لم يستطع عالم الاسلام أن يغطي خسائرها حتى اليوم^{١٦}.

١٥ — مقتبس من مجلة «حوزه» العدد ١٦ لسنة ١٣٦٥ هـ. ش. بتصرف.

١٦ — «إمام شناسی» ج ٥ ص ١٨٣.

إننا في هذا الكتاب سنقوم، بعون الله، بدراسة العقيدة الوهابية وبنقد أفكارها العامة. ولكننا قبل أن نتناول أصول عقائد هذه الفرقة، ستكون لنا قراءة حول مؤسس المذهب. الوهابي، محمد بن عبد الوهاب.

المصادر الأولى للفكر الوهابي

وقبل ذلك أيضا نرى أن من اللازم إدراج بضعة أسطر لتعريف عدد من أساتذة مؤسس الوهابية ومصادر إلهامه.

نبدأ بابن تيمية باعتباره الشخصية المعروفة التي اقترن اسمها عند الوهابيين باسم مؤسس الوهابية، محمد بن عبد الوهاب. ابن تيمية

جاء في ما كتب عن محمد بن عبد الوهاب أنه أُولع في صغره ولعاً شديداً بقراءة كتب التفسير والحديث والعقائد، ويخص باهتمامه كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ويكرر قراءتها^{١٧}. لذلك فإننا نبدأ كلامنا عن ابن تيمية باعتباره استاذ مؤسس الوهابية الفكري وملهمه أفكاره:

هو «تقي الدين أحمد بن تيمية. ولد بحران في ١٠ ربيع الاول سنة ٦٦١هـ، وتوفي بدمشق في ٢٠ ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ. كان متكلماً وفقهاً حنبلياً، ومن أسرة اشتهر منها فقيهان معروفان، هما عمه فخر الدين، وجده لأبيه، مجد الدين.

وعلى أثر هجوم المغول اضطر والد ابن تيمية، عبد الحليم، إلى أن يلجأ إلى دمشق مصطحباً معه ابن تيمية وإخوته الثلاثة سنة ٦٦٧هـ. وفي دمشق قام والده بإدارة المدرسة (السكرية)، حيث تربي فيها ابن تيمية. وكان من بعض أساتذته (شمس الدين عبد الرحمن المقدسي) الذي تبوأ مركز قاضي قضاة الخنابلة في دمشق على عهد (بيبرس) بعد إصلاح الجهاز القضائي في الشام. وخلف ابن تيمية أباه في إدارة المدرسة السكرية، وألقى أول درس له في ٢ محرم ٦٨٣. وفي ١٠ صفر من

١٧ — «إزالة شبهات» ص ٢٠.

السنة التالية ٦٨٤ هـ باشر بتدريس تفسير القرآن في المسجد الأموي بدمشق. وفي أواخر سنة ٦٩١ هـ حج الى بيت الله، وعاد من الحج الى دمشق في ٦٩٢ هـ، وقد صاحب معه المادة اللازمة لتأليف كتابه في «مناسك الحج» الذي فند فيه بعض البدع في مناسك الحج.

وكان أول دخول ابن تيمية في معترك الحياة السياسية سنة ٦٩٣ هـ في قضية رجل مسيحي من أهل السويداء اسمه (عساف)، اتهم بأنه قد شتم رسول الله (ص)، فكان عناد ابن تيمية في هذه القضية سببا في إلقائه لأول مرة في سجن (العدراوية)، حيث كتب أول كتبه المهمة بعنوان «الصارم المسلول على شاتم الرسول».

وفي ١٧ شعبان ٦٩٥ هـ بدأ ابن تيمية بالتدريس في المدرسة الحنبلية — أقدم المدارس الحنبلية في دمشق — خلفا لاحد أساتذته المدعو (زين الدين بن المنجي) الذي كان قد مات حديثا.

وفي عهد الملك المنصور لاجين عهد إليه الملك أن يحرض المسلمين على الجهاد فيما كان المنصور يسير بجيشه نحو أرمنستان الصغرى. وفي هذه الأثناء، أي في سنة ٦٩٨، ألف أهم كتبه في أصول العقائد بعنوان «الحموية الكبرى» بطلب من أهل حماة، هاجم فيه الأشاعرة وعلم الكلام، فاتهمه أعداؤه بالتشبيه واستدعي للحضور أمام قاضي دمشق الحنفي، جلال الدين أحمد الرازي، فرفض الحضور بحجة أن السلطان لم يعينه للنظر في القضايا العقائدية. بعد ذلك لم يضايقه أحد، سوى في الجلسة الخاصة التي عقدت في دار القاضي الشافعي، إمام الدين عمر القزويني، حيث نوقش كتابه «الحموية الكبرى» ويقال إن أجوبة ابن تيمية كانت مقنعة.

وعند هجوم المغول سنة ٦٩٩ هـ بقيادة (غازان الإيلخاني) وبمعونة الأمير المملوك «قبحق»، كان ابن تيمية في دمشق يحث الناس على المقاومة. وفي السنة نفسها انخرط في جيش المماليك ضد شيعة كسروان الذين اتهموهم بأنهم قد أعانوا الفرنجة والمغول.

وعند ظهور التهديد المغولي مرة أخرى سنة ٧٠٠هـ، عهد إلى ابن تيمية بدعوة الناس إلى الجهاد، وفي جمادى الأولى من سنة ٧٠٠هـ رحل إلى القاهرة يطلب من سلطانها المملوك (محمد بن قلاوون) التدخل في الدفاع عن الشام. وفي سنة ٧٠٢هـ عندما عاد المغول إلى الهجوم، كان ابن تيمية حاضراً ففتح (شتحب) في الرابع من رمضان ٧٠٢هـ. وفي هذه المعركة كان قد طلب من ابن تيمية أن يصدر فتوى تعفي المجاهدين من الصوم.

كانت السنوات التالية سنوات صعبة من الجدل والنقاش بالنسبة لابن تيمية. ففي سنة ٧٠٤هـ دخل في نقاش مع رجل اسمه (ابراهيم القطان) متهم باستعمال الحشيش، كما واجه شيخاً آخر يدعى (محمد بن الحناز) اتهم، من بين ما اتهم به، بتخطي حدود الشرع والاباحية. وفي هذا الوقت صاحب فريقاً من الحجازيين الذين دخلوا الى مسجد (نَرْبُخ) لتكسير حجر كان الناس يقصدونه هناك. ومن جهة أخرى دخل في نقاش مع الفرقة الاتحادية من أتباع ابن العربي، وكتب إلى أحد كبارهم — وهو الشيخ نصر الدين المنبجي الذي كان مرشداً لبسبرس الجاشنكير — رسالة مؤدبة إلا أنه انتقد فيها رأي ابن العربي في وحدة الوجود نقداً لاذعاً.

وفي أواخر سنة ٧٠٤هـ اشترك في حملة أخرى ضد «الرافضة» في كسروان، وفي طريق عودته إلى دمشق هاجم الفرقة الأحمدية الرفاعية التي كان زعيمها متهماً بالميل إلى المغول. عندئذ هاجم أعداؤه معتقداته مرة أخرى، وأثاروا الشكوك حول صحة أصول العقائد مما جاء في كتابه «الواسطية» الذي كان قد ألفه قبيل وصول المغول إلى دمشق، فعمدوا مجلساً للمناقشة في مقر حاكم دمشق، الأفرم، في يومي ٨ و ١٢ رجب سنة ٧٠٥هـ. وفي الجلسة الثانية اشترك فيها (صفي الدين الهندي) تلميذ «فخر الدين الرازي» صدر قرارهم بأن كتاب «الواسطية» ليس فيه ما يخالف القرآن والسنة.

وبدا كأن القضية قد انتهت، غير أن القاضي الشافعي (ابن صرصري) تلميذ (محمود الاصفهاني) جدد طلب المناقشة، ووجد عدداً من تلامذة ابن تيمية،

وألقى بالحدث (المزي) في السجن. وعقدت جلسة أخرى في ٧ شعبان سنة ٧٠٥ هـ بأمر السلطان في مقر الحكم، فبرئت ساحة «الواسطية» واستقال (ابن صرصري) من منصبه. وأخيراً استدعي الخصمان إلى القاهرة، فوصلها في ٢٢ رمضان سنة ٧٠٥ هـ. وفي اليوم التالي حضر ابن تيمية مجلساً جديداً في قلعة (ارغ) وحضره أيضاً أربعة من كبار قضاة مصر، بالإضافة إلى عدد من رجال الدولة. وهناك أدين ابن تيمية بالتشبيه وحكم عليه بالسجن. وبقي في سجن (ارغ) في القاهرة نحواً من سنة ونصف، أي حتى ٢٦ ربيع الأول سنة ٧٠٧ هـ. ثم أطلق سراحه بتشفع من جانب الأمير (سلار) رقيب (بيبرس)، والأمير (بدوي مهنا بن عيسى)، فكتب باسمها كتابه «العقيدة التدمرية» في تاريخ غير معروف.

وعلى الرغم من إطلاق سراح ابن تيمية من السجن، إلا أنه منع من العودة إلى الشام، وكان يبادر إلى إدانة كل بدعة ويعتبرها من الزندقة، وسرعان ما خاصم اثنين من أشهر صوفية مصر المتنفذين، وهما: (عطاء الله) تلميذ (أبي الحسن مرسى) و (كريم الدين الآملي) رئيس دار سعيد السعداء. وفي تظاهرة عامة في شوال سنة ٧٠٧ هـ جاء به الناس إلى مجلس (بدر الدين بن جماعة) القاضي الشافعي، فطلب منه القاضي أن يبين رأيه في «التوسل والاستغاثة». وأجبر ابن تيمية على الرجوع إلى الشام، ولكنهم مع ذلك ألقوا القبض عليه في القاهرة وسجنوه في سجن القضاة بضعة أشهر.

وعند وصول (بيبرس جاشنكير) إلى السلطة في ٧٠٨ هـ تجددت محنة ابن تيمية. وفي صفر سنة ٧٠٩ هـ اقتيد ابن تيمية مخفوقاً إلى الاسكندرية حيث بقي تحت المراقبة في أحد أبراج قصر السلطان، ولكنهم سمحوا له باستقبال زواره، وأجازوه أن يؤلف الكتب. وخلال الشهور السبعة التي بقي فيها محجوراً عليه في سجن السلطان زاره الكثير من المغاربة الذين كانوا يرون بمصر، كما أنه ألف عدداً من الكتب المهمة، منها «المفقود» في الرد على «المرشدة» تأليف (ابن تومرت)، وكتاب «الرد على المنطقيين».

وعند عودة (محمد بن قلاوون) إلى السلطة مرة أخرى في بداية شوال من

سنة ٧٠٩ هـ أطلق سراج ابن تيمية من السجن واستقبله في مجلسه في القاهرة، وذلك في ٨ شوال، وبقي فيها مدة ثلاث سنوات. وكان (محمد بن قلاوون، الملك الناصر) يستشيريه أحيانا في شؤون الشام. وخلال هذه المدة كان ابن تيمية يلقي دروسا خاصة ويحيب عن الأسئلة التي تلقى عليه. وفي هذه الفترة باشر بإنجاز كتابه في السياسة القضائية باسم «كتاب السياسة الشرعية» فيما بين السنوات ٧١١ و ٧١٤ هـ. وكثير من «الفتاوى المصرية» قد كتب في هذه الفترة أيضا.

وعلى أثر تهديد المغول الجديد — الذي سرعان ما تلاشى — رحل ابن تيمية إلى الشام، ووصل إلى دمشق في أول ذي القعدة سنة ٧١٢ هـ بعد وقفة قصيرة في بيت المقدس، بينما كان الملك الناصر قد غادر المدينة قبل ذلك بأسبوع يقصد الحج. وعند عودته من الحج إلى دمشق في ١١ محرم ٧١٣ هـ اتخذ تدابير جديدة لإصلاح النظام المالي في هذه المدينة، كما أنه كان في ربيع الثاني من السنة السابقة قد عيّن (الامير تنكز) حاكما عليها.

أمضى ابن تيمية السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته تحت حكم هذا الحاكم، وقد عُيّن رئيسا لإحدى المدارس، حيث كان اتباعه ينظرون إليه كمجتهد مستقل. خلال هذه الفترة كان أحد أبرز تلامذته (ابن قيم الجوزية) الذي بذل أقصى جهده في نشر أفكار ابن تيمية وعقائده، فنال من ذلك البلاء كأستاذه. كانت العلاقات بين الأشاعرة والحنابلة متوترة، والدليل على ذلك تلك الحادثة التي وقعت في محرم من سنة ٧١٦ هـ مما أثارت الاختلافات العقائدية بين المذهبين. في أواخر سنة ٧١٦ وفي الشهور التالية تدخل ابن تيمية في قضية (حيضة) أمير مكة الذي كان قد اتفق مع السلطان خدابنده الإيلخاني في إيران على اتخاذ سياسة أكثر تساهلا بالنسبة للشيعة في مكة. ويبدو أن ابن تيمية قد ألّف كتابه «منهاج السنة النبوية»^{١٨} في هذه الفترة، وهاجم فيه العلامة الحلي.

١٨ — يورد المحقق الجليل المرحوم العلامة الأميني (ره) صاحب كتاب (الغدير) في ج ٣ ص ١٤٨ بحثاً مسهباً حول كتاب ابن تيمية «منهاج السنة» حيث يقول: كان من الأفضل أن يسمى هذا الكتاب

ومرة أخرى يحيق به البلاء، ففي سنة ٧١٨ هـ يصل أمر من السلطان يحذر ابن تيمية من إصدار أي فتوى في «الطلاق» تحالف العقيدة الحنبلية السائدة. كانوا يتصيدون زلات ابن تيمية الذي كان ينكر صحة الطلاق بالثلاث في جلسة واحدة، ولم يجز الطلاق بالحلف إذا لم يكن الحلف مصحوباً بنية الطلاق فعلاً. وقد عقدت جلستان في ٧١٨ و ٧١٩ برئاسة (تنكر) لحاكمته بهذا الخصوص. وعقدت الجلسة الثالثة في ٢٠ رجب سنة ٧٢٠، وحكموا على ابن تيمية بالسجن بتهمة عصيان أوامر السلطان. وسرعان ما قبضوا عليه وسجنوه في قلعة دمشق، حيث بقي لفترة تزيد على الخمسة أشهر، ثم أطلق سراحه في العاشر من محرم. ويشير التاريخ إلى حضوره في السنوات التالية في حوادث تتعلق بالحياة الدينية والسياسية في مصر والشام. في ١٦ شعبان سنة ٧٢٦ أوقف ابن تيمية مرة أخرى من دون أية محاكمة وجرد من حق إصدار الفتوى بأمر من السلطان تلي على الناس في الجامع الأموي. وكانوا يأخذون عليه كتابه «زيارة القبور» لأنه كان قد أفتى فيه بجرمة تقديس الأولياء^{١٩}. وسجن معه عدد من تلامذته أيضاً، ولكنهم جميعاً، باستثناء (ابن قيم الجوزية) قد أطلق سراحهم بعد زمن قصير.

باسم «مناهج البدعة» لا «مناهج السنة» وذلك لأنه برمته يبادر إلى إنكار المسلمات وتكفير المسلمين، وكل ضلالة وتفكير معوج. انه كتاب يزخر بعدم احترام أهل البيت (ع) وبالسبّ وتحريف الكلام وإخفاء الحقائق. ولابد من التنويه بأن هذا الكتاب هو الأساس الذي تقوم عليه عقائد الوهابيين. يهاجم الكتاب أولاً العلامة الحلي، الفقيه والفيلسوف والمتكلم الشيعي المعروف، وفي ظنه أنه يخطئ أصول عقائد الشيعة وآراءهم، ولذلك جاء عنوان كتابه «مناهج السنة» رداً على كتاب «مناهج الكرامة» للعلامة الحلي. إن أهم مصدر للتعاليم الوهابية وأفكارهم هو هذا الكتاب، وعلى الأخص ما جاء عندهم بخصوص التوسل والشفاعة والزيارة والدعاء، إذ يقال إنهم اقتبسوها من أفكار ابن تيمية.

١٩ — سنشير في الصفحات التالية إلى الأخطاء الفكرية عند ابن تيمية فيما يتعلق بالزيارة ومواضيع أخرى وننقدتها حتى يتبين إلى أي مدى كان «شيخ الاسلام» هذا بعيداً عن معرفة حقائق الاسلام وعقائده ومدى انحرافه عنها. ان زيارة قبور الأولياء ليس لتقديسهم وعبادتهم، فهذا ما لا يعتقده حتى المسلم العامي. ولكن الأولياء مقربون إلى الله وهم مرآة يتجلى فيها الله، فزيارتهم ورؤيتهم تزيد الانسان ذكراً لله.

بعد ذلك واجه ابن تيمية خصومة قاضي القضاة المالكي (تقي الدين الاخنائي). وكان خصمه القوي الآخر (علاء الدين القونوي) تلميذ (ابن العربي) الذي ولي منصب قاضي قضاة الشافعية في دمشق بعد أن كان يدير دار سعيد السعداء في القاهرة.

بقي ابن تيمية في سجن القلعة أكثر من سنتين مثابراً على تأليف الكتب وإصدار الفتاوى. بعض الكتب التي بقيت منه يعود تاريخ تأليفها إلى هذه الفترة، وكان قد ألفها لإثبات آرائه، وبخاصة كتاب «معارج الأصول» حول أصول الفقه، وكتاب «رفع الملام»، وكتاب «الرد على الاخنائي» حيث هاجم فيه خصمه الاخنائي هجوماً شديداً، ويُنَّ بإسهاب آراءه في عبادة الأولياء وتقديسهم. وعلى أثر ذلك شكاه الاخنائي للسلطان، فأمر السلطان في ٩ جمادى الآخرة سنة ٧٢٨ هـ بحرمان ابن تيمية من الكتب والورق والقلم. وبعد مضي خمسة أشهر على ذلك توفي ابن تيمية في سجن القلعة، وحضر جنازته جمع غفير من الناس، ودفن في مدافن الصوفية بدمشق، وما يزال قبره موضع احترام أتباعه^{٢٠}.

يقول (خير الدين الزركلي) صاحب كتاب «الأعلام» الذي كتبه في فن التراجم، عن ابن تيمية مايلي:

«أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحضرمي، حرّاني دمشقي حنبلي، معروف بابن تيمية، ولد في حرّان، ورحل إلى دمشق، وأظهر نبوغاً عجباً واشتهر. ثم استدعي إلى مصر بسبب فتوى كان قد أصدرها، وحسده بعضهم. فألقي في السجن بعض الوقت، ثم رحل إلى الاسكندرية، وبعد إطلاق سراحه عاد إلى دمشق. وفي سنة ٧٢٠ أُلقي في

٢٠ — «دانشنامه ایران و اسلام» ج ٣ ص ٤٦٣. لا بدّ من القول بأن ما جاء في هذا الكتاب بشأن بعض الشخصيات مبالغ فيه ويميل الى حسن الظن، بل هو في بعض الأحيان مغرض، حتى انه يدرج أسماء شخصيات منحرفة وخائنة وموالية للغرب ومعادية للدين ومن رجال السياسة الفاسدين، الذين لا هم من علماء الاسلام ولا هم من الشخصيات الايرانية، مثل (كمال أتاتورك). نأمل أن يقوم المسؤولون بتنقيح هذا الكتاب وبذل الجهد في عرضه بشكله الصحيح.

السجن مرة أخرى، وأخيراً توفي في سجن القلعة بدمشق، وحضر جنازته وشيَّعه جمع غفير من الناس. ألف في علوم كثيرة، ودعا إلى الإصلاح الديني. وقد جاء في «الدرر الكامنة» انه كان يدخل مع العلماء في المناظرة والبحث والاستدلال وهو دون العشرين من العمر. ذكروا له نحو ثلاثمئة كتاب. يقول صاحب «فوات الوفيات» ان عدد تأليفه بلغ نحواً من ثلاثمئة كتاب، من جملتها: «السياسة الشرعية» و «الفتاوى» و «الايان» و «الجمع بين النقل والعقل» و «منهاج السنة» و «الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» و «الواسطة بين الحق والخلق» و «الصارم المسلول على شاتم الرسول» و «مجموعة رسائل» و «نظرية العقد» و «الرد على البكري» و «الرد على الاخنائي» و «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» و «شرح العقيدة الاصفهانية» و «القواعد النورانية الفقهية» و «مجموعة الرسائل والمسائل» و «التوسل والوسيلة» و «نقض المنطق» وعدد من الكتب والرسائل الأخرى»^{٢١}.

أتباع ابن تيمية وخصومه كتبوا سيرة حياته، كل فريق من وجهة نظره العقائدية الخاصة، فأتى عليه بعضهم ومدحوه، متغاضين عن أخطائه وانحرافاته، وأخذ عليه فريق آخر الاعوجاج في تفكيره وبدعه وانحرافاته الفكرية، فعاابوا عليه ذلك وذمُّوه.

ومن أتى عليه وتغاضى عن مثالبه (هنري لاؤست) صاحب كتاب «نظريات شيخ الاسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع» ودعاه بالمجاهد الاسلامي الكبير، وأشاد بدفاعه عن الاسلام، ووقفه بوجه المغول، وعدَّد نشاطاته السياسية والاجتماعية، وأبدى إعجابه بسعة معلوماته وإحاطته العجيبة بعلوم زمانه ومعارفه، ووصفه بأنه ذو روحية مستقلة، يكره التقليد ويتميز بقوة نقد عظيمة، واعتبره مجاهداً ساهم مساهمة فعالة في الحرب وفي السياسة، وكان يهاجم منطق ارسطو والفلسفة اليونانية لحماية الاسلام^{٢٢}.

٢١ — «الأعلام» تأليف خير الدين الزركلي، ج ١ ص ١٢٤.

٢٢ — «نشرية معارف» الدورة الأولى، العدد ٣ ص ٦٧.

ولكن ابن تيمية، في نظرنا، كان يتميز بتعصب شديد وغير منطقي ومجمود صلب في العقائد. وعلى الرغم من إحاطته إحاطة واسعة بأفكار فلاسفة مثل ابن سينا، والفخر الرازي، والسهروردي، ولكنه لم يستطع أبداً سبر اغوار تلك الافكار والتعمق في فهمها.

وابن تيمية، كزملائه في الفكر، مثل ابن القيم، وابن بطة، وبرهاري، وابن تومرت، وابن الجوزي، وقع في أسر الظاهر والتفكير السطحي الجامد، فهو شديد السطحية وابتدائي في فكره، بعيد عن المقاييس الفلسفية والمنطقية. ابن تيمية، في رأينا، تبنى ضرباً من (المادية الدينية اللطيفة) فسقط في ورطة مخيفة هي المادية وعبادة الظاهر. إن من يعرف الفلسفة وله اطلاع على الحكمة الإسلامية والعلوم العقلية، يدرك فوراً، عند قراءة مؤلفات ابن تيمية، أنه لم يشم حتى رائحة المسائل الفلسفية ولم يتجاوز في المنطق مقدماته. جميع الاعتراضات التي رفعها على أهل المنطق لأساس لها من الصحة. وأقواله حول «الوجود والماهية» و«الذاتي والعرضي» و«التصور والتصديق» و«الحد والرسم» و«البديهيات العقلية» و«القياس» وكثير من المواضيع الأخرى، تستند الى فلسفة ضعيفة ومنطق صبياني، وتدل على عدم معرفته بها، وإن أمثال هذه البحوث العميقة والثقيلة غريبة عليه^{٢٣}. لذلك فهو يتحرك في قضايا التوحيد والإلهيات بخطوات مرتعشة مترنحة، ويقول، كما يقول الماديون والمعتمدون على الحواس، بتجسيد الباري سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. فكيف يمكن أن نتوقع من شخص مثل ابن تيمية أن يكون مصوناً من المزالق الكبرى والأخطاء الفكرية في الإلهيات العميقة والبحوث العقائدية، مع أنه أعلن صراحة عن محاربته الفلاسفة والمتكلمين والمناطق، ودون أن يظهر شيئاً من الكفاءة للقيام بذلك، إلا بعض المغالطات التي تكشف عن عدم تعمقه وسطحية تفكيره في هذه المسائل. إنه من أشهر خصوم المنطق والفلسفة

٢٣ - لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «متفكران اسلامي در برابر منطق يونان» بقلم مصطفى الحسيني الطباطبائي.

والعرفان في عالم الاسلام، وإنا لانجد بين أمثاله من هو عميق التفكير قوي الحجة، فهم في الغالب لا يدركون مواضيع الفلسفة، بل يحاربون أفكاراً غامضة ومجهولة عندهم ولا يفهمونها.

هنالك بعض السذج الاغرار، ممن لا قدم راسخة لهم في العلوم العقلية والفلسفة والعرفان، يحسبونه مفكراً حراً مستقلاً في الرأي، يعارض التقليد الأعمى، وعدواً لدوداً لكل أنواع الضلالات والبدع، وأنه متحرر من قيود التقليد. بل وصفه بعض هؤلاء بأنه قدوة النهضة الاسلامية، وأنه مصلح اجتماعي وديني دعا للعودة إلى القرآن، وحارب الفكر اليوناني ومنطق ماوراء الطبيعة لأرسطو^{٢٤}.

ولكننا نرى أن هذه الأحكام أحادية الجانب ومتطرفة وحسنة الظن جداً. فنحن إذا نظرنا إلى آراء ابن تيمية وأفكاره من منظور إسلامي كلي وشامل، وبخاصة من المنظور الشيعي العميق ووفق مقاييس الفلسفة الإسلامية السامية، لوجدناه رجلاً متمسكاً بالظاهر، سطحي التفكير، جامد الفكر، متعصبا، أسير تخيلات واهية، سبائاً، أنانياً، يتوسل بالسفسطة والمغالطة، وينكر البديهيّات والأمور المسلّم بها، لا يعترف بقيمة التعقل والتفكير العقلاني، ويستهن بالعقل. وعلى هذا كيف يمكن الزعم بحرية فكره واستقلال رأيه؟ إن من يصدر حكماً بجواز ضرب المتكلمين^{٢٥} كيف يمكن أن يكون حر التفكير؟ إن من يصمم فكرة وحدة الوجود العرفانية الرفيعة — لا وحدة الوجود المزيّجة من الكفر والحلول والاتحاد — بل وحدة الوجود التي يتحدث عنها محققون من أمثال القونوي، وابن العربي، والقيصري، والكاشاني، وابن تركه، والسيد حيدر الآملي، وصدر المتألهين الشيرازي، والعلامة الطباطبائي (قدس الله أسرارهم جميعاً)، أقول، إذا وصم شخص وحدة الوجود هذه بأنها كفر ونظرية فرعونية، فهل يكون حر التفكير^{٢٦}؟ إن من يصل في أعلى مراحل تفكيره إلى تجسيد الله، أيكون من أهل التعمق

٢٤ — «تاريخ فلسفة در اسلام» بقلم ميان محمد شريف ج ٢ ص ٢٨٩.

٢٥ — المصدر نفسه، ص ٣١٣.

٢٦ — المصدر نفسه، ص ٣١٢.

والتعقل؟

إننا لسنا الآن بصدد الدخول بإسهاب في فكر ابن تيمية المعوج وضلالاته، ولا لكان علينا أن نتناول أفكاره في الفقه، والتفسير، والحديث، والتاريخ، والأصول، والفلسفة، والمنطق، والعرفان، بالردّ واحدة فواحدة، لكي يتضح للجميع أن شيخ الاسلام هذا لا يملك من المزايا سوى «كثرة الكتابة» و«الاطالة» و«الثثرة» دون أن يحل أية مشكلة أو يفك أية عقدة في كل تلك المؤلفات الطويلة العريضة.

عقائد ابن تيمية

إننا لكي نزيد من تعرّف القارئ الكريم على هذه الشخصية، نستعرض بعضاً من آراء ابن تيمية بصورة موجزة حتى يطلع القراء على السرّ في أسباب إلقاء مرات عديدة في السجن، وفيما دفع بعلماء الاسلام الى تكفيره، وكذلك لكي يطلعوا على ماهية أفكاره التي وصفوها بأنها إصلاحية (!)، ولماذا أثارت آراؤه كل تلك المعارضة من لدن علماء عصره الذين رفضوها.

التوحيد عند ابن تيمية

يقول ابن تيمية: «إن التوحيد الذي جاء به الأنبياء يتضمن إثبات الألوهية لله وحده، أي أن يشهد العبد بأن لا إله إلا الله وأن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يتوكل إلا عليه، وأن لا يحب أحداً أو يعاديه إلا من أجله، وأن لا يعمل عملاً إلا في سبيل مرضاته. هذا هو التوحيد الذي يتضمن كل ما أثبتته الله (في القرآن) لنفسه.

ولكن مجرد اعتبار وحدانية الله، أو مجرد الاعتقاد بأن الله الواحد هو الذي خلق العالم، لا يكون توحيداً. كذلك إذا أقرّ الانسان بصفات الله واعتبره منزّهاً من العيوب، ويقرّ بأن الله هو خالق كل الكائنات، فإنّ هذا الانسان لا يعتبر موحدّاً إلا إذا شهد بأن لا إله إلا الله، وأن الله وحده هو الجدير بالعبادة.

لابدّ من القول بأن ابن تيمية يعتقد أن التسبّع والاستغاثة بغير الله، واتخاذ الأنبياء والأولياء شفعاء، وزيارة قبور الأنبياء والأئمة والصلحاء، والصلاة

عند قبورهم، والنذر والقرابين في المقابر، تتعارض كلها والتوحيد، وتقوّد إلى الشرك. وعليه، فالموحّد عنده؛ هو الذي يطلب كل ما يريد من الله مباشرة، دون أن يجعل من أحد واسطة أو شفيعاً، وأن لا يتوجّه إلى أحد غير الله^{٢٧}».

توسيع دائرة الكفر والشرك

«بعض الأعمال التي يعتبرها عامة المسلمين جائزة، بل ومستحبة، يراها ابن تيمية شركاً وخروجاً عن الدين. من ذلك أنه إذا سافر أحد بقصد زيارة قبر النبي (ص) فحسب، دون أن تكون نيته الاصلية الذهاب إلى مسجد النبي، فإن هذا الشخص يكون قد خرج عن شريعة سيد المرسلين. وإذا زار قبر النبي أو قريره (وطلب منه قضاء حاجة) وجعله شريكاً لله، فإن ذلك حرام ويعتبر شركاً.

كذلك الذين يتوقعون بعض النفع من القبور ويعتبرونها تدفع البلاء، حكمهم حكم عبدة الأصنام الذين يتصورون الاصنام تضر وتنفع. إن الذين يذهبون للزيارة تكون نواياهم هي نوايا المشركين الذين يطلبون من الأصنام قضاء حاجاتهم، مثلما يطلبها الموحّدون من الله. ويقول أيضاً: كل من يدعو غير الله ويذهب إلى غير الله باسم الحج (أي أن يسافر بقصد زيارة القبور) ويدعو الأموات، سواء أكانوا من الأنبياء أم من غيرهم، يكون قد أشرك بالله.

إن دائرة الشرك والكفر عند ابن تيمية أوسع من ذلك، فهو يرى أن من يجاور مسجداً، ولكنه لمشاغل عمله لا يستطيع حضور صلاة الجماعة فيه، يكون قد ارتكب إثماً يجب حمله على أن يتوب منه، فإذا رفض يكون قتله واجباً^{٢٨}».

توضيح ماسبق

«يقول (الشوكاني) وهو من مؤيدي ابن تيمية والدعوة الوهابية: إن من بين الأمور التي وصلتنا من صاحب نجد هو أن من لم يحضر صلاة الجماعة اهدر دمه. وهذا قول يخالف الشريعة.

٢٧ - «وهايان» تأليف علي أصغر ققبي، ص ٥١.

٢٨ - المصدر نفسه، ص ٥٢.

كان السلف الصالح وأئمة أهل السنة الأربعة وعامة علماء المذاهب الإسلامية يؤدون صلواتهم الواجبة في بيوتهم في ظروف خاصة، أو يؤدونها خارج المسجد. من ذلك أن مالكا، إمام الفرقة المالكية، كان يذهب إلى أحد المساجد ويقيم صلاته هناك، ثم ترك الذهاب إلى المسجد وراح يصلي في بيته، واذ عوتب في ذلك، قال: لا أستطيع أن أبين لكم السبب.

وعندما غضب الخليفة على أحمد بن حنبل، ترك الحضور في المسجد سواء للصلاة ولغير الصلاة. ٢٩»

«جاء عن ابن تيمية أنه كفر كل من يؤخر صلاة الظهر حتى المغرب وصلاة المغرب حتى منتصف الليل، وإن من لا يعتبر هذا كفراً حقه أن تضرب عنقه.

والرجل البالغ الذي يمتنع عن أداء إحدى الصلوات الخمس، أو يترك أحد واجبات الصلاة المسلّم بها، يجب حمله على التوبة، فإذا لم يتب وجب قتله. ويرى ابن تيمية أن القسم بال مخلوقات والنذر لغير الله شرك ٣٠».

الاعتقاد برؤية الله وإثبات الجهة لذاته سبحانه

«من كتب ابن تيمية المعروفة — كما سبق أن قلنا — كتاب «منهاج السنة» الذي كتبه في الرد على كتاب «منهاج الكرامة في إثبات الإمامة» للعالم الشيعي الكبير العلامة الحلبي (قدس سره). يباشر ابن تيمية بذكر اعتقادات الشيعة الواحدة بعد الأخرى ثم يحاول الردّ عليها. من ذلك أنه بعد أن يذكر قول العلامة بأن الله غير مرئي، ولا يمكن دركه بأيّ من الحواس الخمس، بحسب قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)، وكذلك بعد ذكر قول العلامة بأن الله ليس في مكان ولا في جهة، يقول: إن جميع المنتسبين إلى السنة متفقون على الرؤية، وإن السلف يجمع على أن الله يرى بالعين في الآخرة، ولكنه لا يرى في

٢٩ — المصدر نفسه، ص ٥٤.

٣٠ — المصدر نفسه، ص ٥٥.

الدنيا، وهناك اختلاف بشأن رسول الله (ص) «هل إنه رأى الله في الدنيا أم لا» وبشأن الآية يقول: قد تكون رؤية من دون إدراك .

يتكلم ابن تيمية على إثبات الرؤية والجهة لله بكثير من الإسهاب، مستدلاً بظواهر الآيات والأخبار. ولإثبات ذلك كتب الرسالة (الحموية)، حيث يقول، من جملة ما يقول: إن جميع النصوص تدل على أن الله فوق العرش في أعلى السماء، وأنه يمكن الإشارة إلى جهته بالأصابع، وأنه يرى يوم القيامة، وأن الله يضحك، وإذا أنكر أحد وجود الله على العرش في أعالي السماوات، وجب حمله على التوبة، وإذا لم يتب وجب ضرب عنقه. كما إنه يقول، بحسب ظواهر الآيات، إن لله أعضاء وجوارح، غير أن فوقية الله وفوقية صفاته وأعضائه وجوارحه لا يمكن أن تقارن بفوقية أعضاء المخلوقين وجوارحهم. ويقول في ذلك: إن بعض التأويلات التي وردت بهذا الشأن، مثل الآية (الرحمن على العرش استوى) فتأويلهم استوى بمعنى استولى تأويل باطل، وإن هذه التأويلات ظهرت بالعربية بواسطة المتكلمين بعد ترجمة كتب الضلال من اللغات الأخرى^{٣١}».

نقد مقولة ابن تيمية في رؤية الله رؤية حسية

على الرغم من أن التناقض واضح في مقولة ابن تيمية وفي اضطرابها بحيث إنها لا تستوجب الرد، ولكننا نقول إن مقولة ابن تيمية هذه تستدعي القول بأن الله — سبحانه وتعالى — جسم ويشغل حيزاً من المكان، وأنه مركب من أعضاء وجوارح، أي إن التركيب موجود في ذات الله. ولا حاجة للقول بأن كل مركب، لكي يقوم وجوده وبقاؤه، يكون بحاجة إلى أجزائه. إذن، كل مركب محتاج، والمحتاج لا يمكن أن يكون إلهاً، لأن الله غير محتاج إلى غيره، بل الآخرون هم المحتاجون إليه، إن «الله غني عن العالمين»^{٣٢} و «يا أيها الناس أتمم الفقراء إلى الله

٣١ — المصدر نفسه، ص ٥٥.

٣٢ — «آل عمران: ٩٧».

والله هو الغني الحميد» ٣٣.

فهل الذين يستندون الى آيات القرآن لم يقرأوا هذه الآيات التي تشير إلى فقر ما سوى الله، وإلى غناه وعدم حاجته إلى أحد؟ ألا يصف القرآن الله بأنه الغني وأنه الغنى عينه، وأنه غير محتاج وهو عدم الحاجة عينها؟

إننا لن نتطرق إلى الفلسفة، إذ إن أمثال ابن تيمية أقصر من أن يصلوا إلى مستوى ارتفاع الحكمة العميقة لصدر المتألهين وأفكار فلاسفة الشيعة العظام، كالمحقق الطوسي، والمحقق الداماد، وفيض الكاشاني، والمحقق اللاهيجي، والحكيم السبزواري وعشرات آخرين من الحكماء والعرفاء العظام، فيستوعبونها.

إن الحكمة الإسلامية المتعالية والفلسفة الشيعية العميقة التي أسست على أيدي فلاسفة الشيعة المتضلعين، وسمقت وفتحت على امتداد السنوات والقرون حتى بلغت أوجها، ترى الله موجوداً مجرداً، بل هو فوق التجرد، ولا متناهٍ، بل فوق اللامتناهي عتة وشدة ومدة. وهم يشبّهون أن ليست له جهة، ولا حدود، ولا مادة، ولا تركيب، سواء أكان تركيباً من حيث الوجود والماهية، أم من حيث المادة والصورة، أم من حيث الجنس والفصل. وهو في ذاته لا مثيل له ولا نظير. وما حاجة الله إلى جسم؟ أين التراب ورب الأرباب؟ غير أن ابن تيمية يقول: إذا اعتقد إنسان بأن الله في أعالي السماوات وفوق عرشه، وأنه منفصل عن خلقه، فهو على حق، سواء أطلقوا على ذلك اسم المكان أم لم يطلقوا!

من الواضح جداً أن معنى هذا الكلام هو القول بوجود مكان لله، بل إنه قال إن من الممكن الإشارة إلى مكانه بالإصبع. فإذا كان الله يمكن أن يشار إليه إشارة حسية، فلا بد أن يكون له مكان، وإذا كانت له أعضاء وجوارح ويد وعين ووجه وغير ذلك، فلا بد أن يكون جسماً، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. لقد أثبت فلاسفة الشيعة الأجلاء في الفلسفة الإسلامية بأن الله وجود محض بحت بسيط، ولا تركيب له ولا ماهية:

والحق ماهيته إتيته إذ مقتضى العروض معلوليته
إنه وجود صرف و «صرف الوجود» و «حقيقة الحقائق»، وهو في بساطته
عينا يضم كمالات كل الأشياء، وليس له «غير» ولا «ثان» من نوعه، وهو
مبدأ، وموجد، ومفيض كل موجود، وخالق كل كمال. ما من شيء خارج عن
محيط قدرته، «وهو على كل شيء قدير»، و «قد أحاط بكل شيء علما».

كما أثبتوا أن الجسم والجسمانية أنزل مراتب الوجود، والعالم المادي،
الذي هو وعاء الأجسام: أنزل وأظلم عوالم الوجود وأحط درجاته.

وقد جاء في الحديث القدسي أن الله قال: «ما نظرت إلى الأجسام مذ
خلقتها». فهذا هو الشأن الوجودي المنحط للمادة والجسم. وبعد هذا كيف يمكن
القول بأن الله جسم من الأجسام يتربع فوق العرش وله عين وأطراف وأذن
وأعضاء وجوارح؟ تلك هي المادية في الدين التي تكلمنا عليها من قبل. وفي
اعتقادنا أن ابن تيمية وابن القيم ورفاقهما في الفكر وجميع الوهابيين قد وقعوا في
شرك هذه المادية، وكل هذه الضلالات والأفكار الملتوية إنما هي بسبب عدم
الغور في تحقيق المسائل العقائدية، والاستهانة بالعقل والتعقل، والابتعاد عن الحكمة
الصادقة الإيمانية، والفلسفة الإلهية الأصيلة.

أصبحت آراء ابن تيمية الفجة هذه، بعد ذلك، القواعد الفكرية التي
استند إليها محمد بن عبد الوهاب في اختلاق المذهب الوهابي. لم يأت عبد الوهاب
في آرائه بشيء جديد، بل هي مانسجه خيال ابن تيمية وضعها في قوالب لفظية
مختلفة وفي عبارات أخرى.

القول بنزول الله إلى السماء الدنيا

«يقول ابن بطوطة في رحلته في معرض وصفه دمشق: كان في دمشق من
الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية يتكلم في فنون مختلفة، ويعظ أهل دمشق على
المنابر. تكلم مرة فأنكره الفقهاء واستقبحوه وشكوه إلى الملك الناصر، ملك مصر،
فأمر الملك الناصر بترحيله إلى القاهرة. وفي القاهرة اجتمع القضاة والفقهاء في
مجلس الملك الناصر، وابتدأ الكلام شرف الدين الزواوي المالكي، ذاكرة أقوال

ابن تيمية، فأمر الملك الناصر بالقائه في السجن، حيث بقي بضعة سنوات، ألف خلالها كتاباً بعنوان «البحر المحيط» في نحو أربعين مجلداً. وبعد إطلاق سراحه من السجن، عاد يردد أقوالاً استنكرها العلماء. كنت (اي ابن بطوطة) يومئذ في دمشق. وفي يوم جمعة صعد ابن تيمية المنبر في المسجد الجامع يعظ الناس، وكنت حاضراً. قال في كلامه إن الله ينزل إلى السماء الدنيا (السماء الأولى) بمثلها أنزل أنا هكذا (ونزل درجة من المنبر). وعند جريان هذا الكلام على لسانه قام فقيه مالكي اسمه (ابن الزهراء) وعارضه مستنكراً قوله، فهاجم الناس الفقيه المذكور وضربوه بالأيدي والأحذية بحيث سقطت العمامة عن رأسه، وظهرت تحتها طاقة من الحرير، فاستهجن الناس على الفقيه استعماله الحرير، واقتادوه إلى (عزالدين ابن مسلم) قاضي الحنابلة، فأمر القاضي بسجنه، ثم عزروه. غير أن فقهاء المالكية والشافعية استقبحوا عمل القاضي الحنبلي، وأوصلوا الأمر إلى ملك الأمراء (سيف الدين تنغين) فقام سيف الدين بتدوين الحادث مع عدد آخر من أقوال ابن تيمية في رسالة شرعية (عليها توابع قضاة عدول) وأرسلها إلى الملك الناصر، فأمر الملك بسجن ابن تيمية، فبقي فيه حتى رحل عن هذه الدنيا»^{٣٤}.

«لقد حاول بعضهم التشكيك في حكاية ابن بطوطة هذه قائلين إنها موضوعة، ولكن ابن تيمية نفسه يشهد بصحتها في كتابه «العقيدة الحموية الكبرى» حيث يقول: إن الله فوق العرش في السماء العليا وينزل منها إلى السماء الدنيا (السماء الأولى). إن لابن تيمية عدداً من الرسائل يتحدث فيها عن كون الله في السماء وعلى العرش (بصورة حقيقية ومن غير تأويل أو تفسير) وجوابه عن كيفية حل صفات الله على الظاهر. ومع ذلك فهو قد أنكر التشبيه، وقال إن النساء أيضاً يرزى الله في الجنة، وغير ذلك من الأمور»^{٣٥}.

٣٤ — «وهابيان» ص ٦٤.

٣٥ — المصدر نفسه.

القول بعدم لزوم العصمة للأنبياء قبل أن يبعثوا

«في الرد على قول العلامة الحلي بأن الأنبياء معصومون طول أعمارهم من ارتكاب الخطأ والاثم، صغيره و كبيره، وأنه في غير هذه الحالة لا يمكن الوثوق بما يقولون، يقول ابن تيمية: ليس من الضروري أن يكون الأنبياء معصومين من الخطأ والاثم قبل أن يبعثهم الله برسالته، ويورد على ذلك بعض الأدلة. كما أنه كان يعتقد بأن الأنبياء كانوا معصومين عند تبليغ أحكام الله فقط، وله في ذلك رسالة»^{٣٦}.

يتطلب البحث في عصمة الأنبياء مجالاً واسعاً لا يتسنى لنا هنا، فهو من أوسع البحوث الكلامية والفلسفية العقائدية وأهمها. كما أن المثقفين المستغربين، والذين يطلق عليهم اسم المتنورين وحديثي التفكير قد أثاروا الكثير من الجدل والشبهات حول هذا الموضوع. وكذلك الأشاعرة، والمعتزلة والخوارج، والحشوية، وفرق أخرى، كل أبدت وجهة نظرها في الأمر، ولكننا لسنا الآن بصدد استعراضها. ولكن حسبنا القول بأن وجهة نظر الشيعة الامامية — وهي باعتقادنا أصح النظرات — تقول إن النبي يجب أن يكون من أول عمره حتى آخر عمره معصوماً من الخطأ والاثم، وذلك لأن القلوب تطيع أوامر من لم يرتكب منذ صغره أي نوع من المعاصي، كبيرها وصغيرها، ولا ارتكب أخطاءً تنفر الناس منه. وإذا لم تُقبل قلوب الناس على النبي، فلن تطيعه ولن تنفذ أوامره، وبالتالي لن تنال الهداية، وبذلك ينتقض الغرض من بعث الأنبياء. إن الله تعالى — بمقتضى ربوبيته — يري ويهدي جميع الكائنات، ويمنح هدايته الخاصة لكل كائن من الكائنات، فإذا لم يستسلم الناس للأنبياء وامتنعوا عن إطاعتهم، وتجنبوهم، لا يمكن أن يهتدوا، ولا تتحقق إرادة الله تعالى. وعلى ذلك، لا بد أن يكون الأنبياء معصومين من جميع النواحي وفي جميع فترات حياتهم، قبل الوحي وبعده.

المرحوم العلامة الطباطبائي، صاحب تفسير (الميزان) يقول: «العصمة

٣٦ — المصدر نفسه، ص ٦٦.

على ثلاثة أقسام، أو إن لها مراتب ثلاثاً.

المرتبة الأولى: هي أن النبي يجب أن يكون معصوماً من الخطأ في تلقي الوحي.

المرتبة الثانية: هي أن يكون معصوماً من الخطأ في تبليغ الرسالة والقيام بها.

المرتبة الثالثة: هي أن يكون معصوماً من كل ما يهتك الحرمه في العبودية، وما يتصور فيه مخالفة لأمر الله. والقرآن يدل على أن الأنبياء (ع) معصومون من جميع النواحي).

ولأهمية هذا البحث، سوف نورد مزيداً من التوضيح بالاستناد إلى القرآن نفسه باعتباره يحظى بقبول مؤيدي ابن تيمية أيضاً، لكي يتبين أن وجهة نظر ابن تيمية ومن يرى رأيه بعيدة كل البعد عن القرآن وغريبة عليه تماماً، وأن هؤلاء يحاولون عبثاً أن ينسبوا استنباطاتهم غير الصحيحة إلى القرآن الكريم، وأن يلصقوا به أفكارهم الخاطئة الموهومة. إن القرآن منزّه من أمثال ذلك.

قلنا في قضية عصمة الأنبياء أنها تتدرج تحت ثلاثة مواضيع:

الأول: هو موضوع تلقي الوحي، أي إن قلب النبي يجب أن لا يرتكب عند تلقي الوحي أي خطأ، وأن يستوعب الوحي كما هو، دون زيادة ولا نقصان، وأن لا يتجلى الوحي في قلب النبي بصورة غير صورته الحقيقية والواقعية.

الثاني: هو موضوع التبليغ وإيصال الوحي، أي إيصال الوحي كما تلقاه، دون أن يرتكب أي خطأ في أدائه وإيصاله، فهو يجب أن لا ينسى الوحي، ولا أن يزيد أو ينقص في الأداء، فيبلغ الوحي إلى الأمة على غير صورته الواقعية.

الثالث: هو موضوع المعصية والإثم، أي يجب على النبي أن لا يصدر منه ما يتنافى ومقام العبودية والاحترام ويستوجب المس بالمقام الإلهي المقدس، سواء في أقواله أو أفعاله.

يمكن إنجاز هذه المراحل الثلاث في جملة واحدة، وهي أن هناك شيئاً من الله في الإنسان المعصوم يصونه عن ارتكاب الخطأ والإثم.

أما الخطأ في غير هذه الحالات الثلاث، كالخطأ في القضايا الخارجية، مثل الخطأ في الحواس عند الانسان، أو في إدراك الأمور الاعتبارية أو التكوينية من نفع وضرر وصلاح وفساد، فهذا خارج عن بحثنا.

وفي القرآن آيات تدل على تلك المراحل الثلاث من عصمة الأنبياء: «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»^{٣٧}.

يفهم من هذه الآية أن الهدف من إرسال الانبياء وإنزال الوحي والكتاب هو دعوة الناس إلى الحق، وهدايتهم إلى طريق الحق والصواب في كل أحوال الاختلاف في قول أو في فعل أو في عقيدة. هذا هو هدف الخلقة والغرض من بعثة الأنبياء، والله لا يخطئ في الهدف، لقوله:

«لا يضل ربي ولا ينسى»^{٣٨}.

كما أنه يبلغ هدفه دون مانع ولا معيق، حسبما جاء في الآية الكريمة:

«إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً»^{٣٩}.

وكما جاء في الآية:

«والله غالب على أمره»^{٤٠}.

لذلك أصبح من اللازم لحفظ الوحي في إنزاله وتبليغه وأدائه، أن يكون الأنبياء معصومين من كل خطأ، إذ لو فرضنا، بحسب مفاد هذه الآيات، أن قلب النبي أخطأ في تلقي الوحي وإبلاغه، فلا يكون الهدف من الرسالة قد تحقق، لأن

٣٧ — «البقرة: ٢١٣».

٣٨ — «طه: ٥٢».

٣٩ — «الطلاق: ٣».

٤٠ — «يوسف: ٢١».

هدف الرسالة هو الدعوة إلى الحق، كما تقول الآية:

«وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه»^{٤١}.

ففي حالة خطأ النبي، إما أن يكون الله قد أخطأ في اختيار الرسول وطريقة إنزال الوحي على قلبه؛ وإما أن يكون الهدف هو الدعوة إلى الحق فعلاً، ولكنه أخطأ في إنزال الوحي على قلب النبي بحيث لا يقع أي تغيير أو تبديل أو نسيان، وهذا يتنافى مع «لا يضل ربي ولا ينسى»، وإما أنه قصد إلى الدعوة إلى الحق، وأنه لم يخطئ ولم ينس شيئاً في إجراء هذا الأمر، غير أن بعض الموانع الخارجية وقفت في طريق تحقيق أمر الله، وهذا أيضاً لا يصح بموجب مفاد الآية «إن الله بالغ أمره» أو «والله غالب على أمره».

وعليه، وطبقاً لهذه المقدمات، لاشك في أن الله قد عصم الأنبياء من الخطأ والغلط في كيفية تلقي الوحي وتبليغه، وجعل قلوبهم من الصفاء والطهارة بحيث أنها، عند نزول الوحي عليها لم يصبها أي ارتعاش أو ما يوجب تغييراً في كيفية الوحي وواقعيته في قلوبهم، كما لم يصبها أي اضطراب أو غموض يمكن أن يبعث على تأويلهم المدركات الواقعية أو تفسيرها بخلاف واقعيته وحقيقتها.

هذه هي حقيقة العصمة في مرحلتي تلقي الوحي وإبلاغه.

أما المرحلة الثالثة التي تشمل عصمتهم من الإثم، فيمكن بذكر مقدمة أخرى بيان دلالة الآية المذكورة على ذلك أيضاً: إننا إذا قلنا بإمكان ارتكاب النبي إثمًا، فإن ذلك يعني أنه قد أباح للآخرين ارتكاب ذلك الإثم، إذ إن العاقل لا يرتكب إلا ما يراه صالحاً ومستحسناً. فإذا ارتكب إثمًا في الوقت الذي ينهى الناس عنه، يكون قد أتى ما يوجب التناقض والتهاوت، وأنه بفعله وقوله قد أبلغ أمرين متناقضين، فبالقول ينهى الناس عن ارتكاب ذلك الإثم، ولكنه بارتكاب ذلك الإثم بالفعل يكون قد أباحه وأجاز للناس الاقتداء به.

ومن المعلوم أن تبليغ أمرين متناقضين لا يكون تبليغاً بالحق، إذ إن كلاً

٤١ — «البقرة: ٢١٣».

منها يكون مبطلاً للآخر. فالله الذي يبعث النبيين لإبلاغ الناس بالحق لا يأمرهم بالدعوة إلى متناقضين، بل يعصمهم من القيام بغير الحق ومن كل إثم ومعصية، وذلك لأن قيام الأنبياء بتبليغ الرسالة وإيصال الوحي (كما ينبغي) لا يمكن أن يتحقق من دون أن يكونوا معصومين.

وهذا يتضح جلياً أن الآية المذكورة تدل على عصمة الأنبياء في المراحل الثلاث من تلقى الوحي وتبليغه في حالة من العصمة.

أما البحث في عصمة الأنبياء طوال أعمارهم — وهو رأي الشيعة الإمامية — فيطلب مجالا أوسع لا يتيسر لنا في الوقت الحاضر^{٤٢}.

القسم بغير الله

«يقول ابن تيمية: يجمع العلماء على أن القسم بالمخلوقات المقدسة، كالعرش والكرسي والكعبة والملائكة، غير جائز، ويرى جمهور العلماء، مثل مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل في أحد قولي، أن القسم بالنبي (ص) غير جائز أيضاً، وأن القسم بالنبي أو بغيره من المخلوقات لا ينعقد (أي ليس له أثر شرعي)، ونقضه لا يوجب الكفارة، إذ إنه قد ثبت في رواية صحيحة أن النبي (ص) قال: لا تقسموا إلا بالله. وفي رواية أخرى: من أراد أن يقسم فليقسم بالله، أو فليسكت. وفي رواية أخرى: القسم بالكاذب بالله خير من القسم الصادق بغير الله. وهو يقول: إن القسم بغير الله شرك. وهناك من يستثني القسم برسول الإسلام ويراه جائزاً، وهذا أحد قولي أحمد بن حنبل، وهو مقبول عند عدد من أصحابه.

وأجاز آخرون القسم بجميع الأنبياء، غير أن قول الجمهور بعدم جواز القسم بالمخلوقات بدون استثناء هو الأصح.

ابن القيم، تلميذ ابن تيمية المقرب إليه، يقول: ألقسم بغير الله من الذنوب الكبيرة. قال رسول الله (ص): من أقسم بغير الله فقد أشرك به، وعليه فإن

٤٢ — «امام شناسي» ج ١ ص ١٠.

القسم بغير الله يأتي على رأس الكبائر»: ٤٣.

توضيح القسم بغير الله

«المرحوم العلامة الأمين، صاحب (أعيان الشيعة) يقول: إن قول صاحب الرسالة بأن العلماء مجمعون على نهي القسم بغير الله إنما هو قول جزاف، لأنه لإثبات زعمه لا يذكر سوى أقوال أبي حنيفة وأبي يوسف وابن عبد السلام والقنطوري، وكأن جميع علماء الاسلام في جميع العصور وفي جميع البلدان والمدن ينحسرون بهؤلاء الأربعة. لماذا لم يذكر فتاوى الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل؟ ولماذا لم يشر بشيء إلى فتاوى علماء لا يعرف عددهم سوى الله؟

والحقيقة هي أن القسم بغير الله لا هو مكروه ولا هو حرام، بل إنه مستحسن ومستحب بموجب أخبار واردة في ذلك. ثم يورد المرحوم الأمين (ره) عدداً من الروايات من كتب الصحاح تؤيد قوله.

وفي موضع آخر يقول: إن القسم بغير الله، وبالله والرسول (ص) والصحابة والتابعين وجميع المسلمين كان مألوفاً منذ القديم حتى اليوم. والله نفسه يقسم في القرآن بكثير من مخلوقاته. وفي أقوال الرسول (ص) والصحابة والتابعين مناسبات كثيرة أقسموا فيها بحياتهم وبأشياء أخرى مختلفة.

يقول الشعراني عن أحمد بن حنبل إنه إذا أقسم بالنبي (ص) انعقد قسمه، بل القسم بغير النبي أيضاً يوجب انعقاده» ٤٤.

التوسل بالنبي (ص) والتشفع به وطلب الحاجات

«يقول ابن تيمية في هذه الأمور: إذا زار أحد قبر النبي (ص) دون قصد الدعاء والسلام، بل بقصد طلب حاجة من النبي، فيرفع صوته عند القبر المقدس بهذا القصد، فإن هذا الشخص يكون قد آذى النبي، وأشرك بالله، وظلم نفسه. ويورد ابن تيمية بعض الأحاديث عن النبي (ص) مفادها قوله: إن من زارني، بعد

٤٣ — «وهايان» ص ١١٣.

٤٤ — المصدر نفسه، ص ١١٤.

مما تي، كمن زارني في حياتي. ويقول عن هذه الأحاديث إنها موضوعة وضعيفة. وبشأن التوسل بصاحب القبر يقول: بعض زوار القبور يقصدون من زيارتهم قضاء حوائجهم، وبما أنهم يعتبرون صاحب القبر أقرب إلى الله، فهم يجعلونه واسطتهم إلى الله، وينذرون النذور له ويقدمون له القرابين، ويوقف بعض الزائرين جانباً من أموالهم على صاحب القبر. وفريق آخر من فرط الحب والتشوق لصاحب القبر يشدون الرحال لزيارة قبره ويعتبرون ذلك بمثابة زيارة صاحب القبر في حياته، وإذا ما تحققت زيارتهم للقبر الذي يحبون صاحبه، أحسوا في نفوسهم بالراحة والاطمئنان. إن هؤلاء هم أشبه بعبدة الأصنام الذين يعتبرون الأصنام مثل الله» ٤٥.

توضيح التوسل بالنبي (ص)

«إننا بفضل الله وعونه سوف نبحث موضوع التوسل عند نقد أفكار محمد بن عبد الوهاب، ولكننا في هذه العجالة نقول: مسألة التوسل هذه فضلاً عن كونها لا تنافي الشرع، فإنها قضية معقولة وتستحسنها الحكمة. يقول السمهودي عن السبكي إن ذكر المحبوب يؤدي أحياناً إلى استجابة الدعاء، وخير من ذلك التعبير عنه بالتوسل، أو الاستغاثة، أو التشفع والتوجه. والإنسان قد يتوسل بمن له حظوة أكبر عند عظيم.

مسألة التوسل هذه تكرر حدوثها مراراً في حياة النبي (ص). من ذلك ما رواه (النسائي) و (الترمذي) عن (عثمان بن حنيف) أن النبي (ص) أمر رجلاً بصيراً أن يقرأ هذا الدعاء: أَللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتُوجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ. يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضى لي. أَللّهُمَّ شَقِّعْ لِي.

و (الطبراني) يورد مثل هذا الحديث بشأن رجل في زمن عثمان بن عفان كانت له حاجة، فأشار عليه عثمان بن حنيف أن يقرأ ذلك الدعاء. وفي رواية أخرى عن البيهقي: إن الناس أصابهم الجفاف في عهد عمر، فتوسلوا بقبر

النبي (ص) حيث وقف رجل أمام القبر وقال: يا رسول الله استسق لأُمتك فإنهم قد هلكوا.

ومالك (صاحب المذهب المالكي) في مناظرة له مع أبي جعفر المنصور في مسجد رسول الله (ص) قال له: قف متوجها إلى قبر النبي (ص) وتشفع به.

وعمر، في سنة جفاف، توسل بالعباس، عم النبي (ص) قائلاً: أَللّٰهُمَّ كُنَّا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا — وفي رواية أخرى قال عمر: إجعلوا العباس وسيلة إلى الله.

وابن تيمية نفسه يقول إن أصحاب النبي (ص) في حياته كانوا يتوسلون به، وعند وفاته راحوا يتوسلون بعمه العباس مثلما كانوا يتوسلون به. وقال أيضا: إن أحمد بن حنبل كان يتوسل في دعائه برسول الله (ص)، وإنه في واحدة من روايته أجاز القسم بالنبي والتوسل به.

هذه الروايات وأمثالها المذكورة في الصحاح والكتب المتعبرة عن المذاهب الأربعة تبين أن التوسل برسول الله (ص) وطلب الشفاعة منه، وكذلك التوسل بغير النبي، مثل عمه، كان من سيرة السلف».^{٤٦}

وكما قلنا من قبل إن مناقشة جميع أفكار ابن تيمية تطيل البحث، لذلك نكتفي هنا بذكر ما أوردناه من نماذج عن أفكاره الملتوية وانحرافات العقائدية، ولنا أمل بأن تتاح لنا الفرصة في المستقبل لنتناول في بحث مستفيض آراء ابن تيمية وأفكاره بالنقد والتحليل.

والآن، وبعد أن تعرفنا على شخصية ابن تيمية وآرائه، نباشر بالتعرف على شخصية مشهورة أخرى تتلمذت على ابن تيمية وكانت من أقرب المقربين إليه وتشر آراءه، تلك الشخصية التي كانت أفكارها ملهمة محمد بن عبد الوهاب في خلق الوهابية، أعني (ابن قيم الجوزية).

ابن قيّم الجوزية

يقول المحدث القمي، صاحب (المفاتيح)، في كتابه القيّم (الكنى والألقاب): اسمه محمد بن أبي بكر، حنبلي، توفي سنة ٧٥١ هـ. وهو صاحب كتاب (زاد المعاد في هدى خير العباد)، درس الفقه على ابن تيمية وجاء عن صاحب كتاب (الدرر الكامنة) أنه قال: كان حبُّ ابن تيمية قد استولى على ابن القيّم إلى درجة أنه لم يكن ليخالف له قولاً، بل يكتفي بما يقوله ابن تيمية في جميع المسائل. وهو الذي كان يهذب كتب ابن تيمية وينشر علمه.

كان مقرّباً من أمراء مصر الذين كانوا يصلونه، وسجن في القلعة مع ابن تيمية، وقد أُهين وضرب وأُركب على بعير وداروا به في المدينة. وقد فتح موت ابن تيمية باب الفرج له.

ومرة أخرى أُوذي ابن القيّم بسبب فتاوى ابن تيمية. كان يستفيد من علماء عصره. كما كانوا هم يستفيدون منه»^{٤٧}.

وجاء في موسوعة (دانشنامه ایران و اسلام) عن ابن قيّم الجوزية مايلي:
«شمس الدين أبوبكر محمد بن أبي بكر الزرعي. متكلم، فقيه حنبلي، ولد في ٧ صفر من سنة ٦٩١ هـ في دمشق، وتوفي فيها سنة ٧٥١ هـ. كان من أسرة متوسطة الحال، وكان أبوه القيّم المباشر على المدرسة الجوزية حيث كان يجلس فيها للقضاء قاضي قضاة دمشق الحنبلي. بلغ ابن قيّم الجوزية مبلغاً رفيعاً في تحصيل العلوم على عدد من الأساتذة، منهم القاضي سليمان بن حمزة، والشيخ أبوبكر بن (ابن عبد الدائم). ولكنه منذ سنة ٧١٣ هـ أخذ يحضر دروس ابن تيمية وأصبح من أبرز تلامذته، ويمكن القول إنه تقبّل جميع أفكار ابن تيمية ومعتقداته، وفي الوقت الذي كان محتفظاً فيه بشخصيته الخاصة، أخذ بنشر تلك الأفكار وإداعتها. كان مثل استاذة متضلّعاً في جميع علوم عصره، كالتفسير، والحديث، وأصول الفقه

٤٧ — «مشاهير دانشمندان اسلام» ترجمة «الكنى والألقاب» للشيخ عباس القمي، ج ٢ ص

وفروعه. ومثل استاذة أيضاً، كان شديد المعارضة للطريقة الاتحادية التي كانت تستند إلى تعاليم ابن العربي، ولكنه، بخلاف أستاذه، كان متأثراً بالصوفية بشدة. كان مولعاً بكتاب «منازل السائرين» للخواجه عبدالله الأنصاري الذي اشتهر على عهد المماليك. كان أقل من استاذة دخولاً في المناظرات، ولكنه فاقه في الوعظ، وأخيراً بقي اسمه ككاتب فنان. كانت كتاباته السلسلة تقف على الطرف المناقض لكتابة استاذة الجافة المرة.

كان ابن القيم قد سجن مع ابن تيمية في القلعة بدمشق في ٧٢٦هـ، ولكنه أطلق سراحه سنة ٧٢٨هـ بعد وفاة ابن تيمية، وفي سنة ٧٣١هـ حج إلى بيت الله ضمن قافلة الشام برئاسة الأمير عز الدين آيبك، والتي ضمت عدداً كبيراً من الفقهاء والمحدثين.

لم يكن نشاط ابن القيم واسعاً جداً، فقد كانت تحده الحدود والموانع التي وضعتها حكومة المماليك بوجه المذهب الحنبلي الجديد لابن تيمية.

وفي الثاني من رجب سنة ٧٣٦هـ ألقى أول خطبة له في المسجد الذي بناه (نجم الدين بن خاليل خان) في بساتين الغوطة بدمشق خارج باب توما والباب الشرقي.

وفي ٦ صفر سنة ٧٤٣هـ أعطى أول درس له في المدرسة الصدرية وبقي يلقي دروسه هناك حتى نهاية عمره.

اصطدم مرتين مع (تقي الدين السبكي) قاضي قضاة الشافعية بدمشق، ولكن الأمر لم يصل بينها إلى حد الاحتراب.

في ٧٤٦هـ جرت له مناظرة مع السبكي حول قضية سباق في الرمي أو في ركوب الخيل إذا اشترك فيها متسابقان ووضع كل منهما مبلغاً من المال كجائزة للفائز، وفي الوقت نفسه لا يشترك المحلل (شخص ثالث يشترك معها دون أن يضع نقوداً) معها في السباق، فهل يكون السباق مشروعاً، أم يندرج تحت لعب القمار؟ ابن القيم، الذي كان ينحونحو استاذة ابن تيمية في أسلوب تفكيره، قال إن وجود المحلل لا ضرورة له في المسابقة، فاستدعاه القاضي وحمله على اتباع رأي

الأكثرية.

ولم يلبث أن اشتبك مرة أخرى مع السبكي في قضايا الطلاق، إذ كان ابن القيم قد أصدر عدة فتاوى في الطلاق بحسب رأي ابن تيمية، فحصل بينهما الخلاف، غير أن الأمير (سيف الدين بن فضل البدوي) أصلح بينهما.

وفي ٢٣ رجب ٧٥١ هـ توفي ابن القيم في دمشق، ودفن الى جوار قبر أمه في مقبرة الباب الصغير، وخلفه ابنه (جمال الدين عبدالله) في التدريس في المدرسة الصدرية.

آثار ابن القيم الأدبية والعقائدية كثيرة، ويمكن اعتبار كتابه «مدارج السالكين» - وهو شرح لكتاب «منازل السائرين» للخواجه عبدالله الأنصاري - أهم كتاب له في التصوف الحنبلي.

وله «أعلام الموقعين» أو دليل المفتي الكامل، في أصول الفقه بحسب آراء ابن تيمية، كما أنه استلهم أستاذه في السياسة في كتابيه «الحسبة» و «كتاب السياسة الشرعية». وله قصيدة نونية في أصول الدين يردُّ بها على الفرقة الاتحادية، وكتابه «الصواعق المرسلة» ردُّ على الجهمية بأسلوب جدلي.

هنالك عدد من الفقهاء والمجتهدين كانوا من تلامذته على عهد المماليك، أو أنهم تأثروا قليلا أو كثيراً بأقواله، منهم المحدث والمؤرخ الشافعي، ابن كثير، وزين الدين بن رجب، آخر ممثل كبير للمذهب الحنبلي في القرون الوسطى، وكذلك ابن حجر العسقلاني.

واليوم لاتجد آثار ابن القيم قراءها بين الوهابيين فحسب، بل بين السلفيين وفي المحافل الاسلامية في شمال أفريقيا أيضا^{٤٨}.

خير الدين الزركلي، صاحب «الاعلام» يعتبر ابن القيم من أركان الإصلاح الاسلامي وأحد كبار العلماء ويقول: «لم يكن يتخطى حدود آراء وأقوال استأذه ابن تيمية، بل كان يجتهد في تأييد آرائه وإكمالها، ويعمل على نشر

٤٨ - «دانشنامه ايران و اسلام» ج ٦ ص ٨٠٣.

كتبه، وكان مشتهراً بين الناس بحسن خلقه»^{٤٩}. ثم يدرج قائمة بأسماء كتبه.
وفي المقدمة التي كتبها الدكتور نزار رضا لكتاب «أخبار النساء» من
كتب ابن القيم، والذي قام بتحقيقه، يورد موجزاً لسيرة حياة ابن القيم وتأليفه،
فيقول عنه:

«فقيه حنبلي من أشهر فقهاء الحنبلية. ولد في دمشق سنة ٦١٩ هـ. تتلمذ
على الامام ابن تيمية وأصبح من أحظى مريديه، يقول بقوله، ويردّد أفكاره
وكلماته، مع المشاركة في الرأي والعمل. جرى استاذته في كل أموره، يدعوله
وينشر فتاويه ويناضل في سبيله، حتى أنه سجن معه في قلعة دمشق سنة ٧٢٦ هـ.
واحتمل العذاب والإهانة من أجله.

ولما توفي استاذته أفرج عنه. فعكف على مؤلفاته تهذيباً وشرحاً، وكان دائماً
المطالعة مولعاً بجمع الكتب...»^{٥٠}.

وفي المقدمة التي كتبها صابري يوسف لكتاب «روضة المحبين ونزهة
المشتاقين» لابن القيم، الذي حققه وصححه بنفسه، يقول عنه إنه عالم، فقيه، إمام
ديني، حرّ التفكير، ومن أهل الاجتهاد والاستنباط، ويعارض التقليد الأعمى،
وإنه شديد التقيد بالكتاب والسنة، ولا ينتمي إلى أيّ من المذاهب، وإنما هو رجل
يسعى لفهم روح كل موضوع وادراك كنهه، ولبلوغ منابع حقائق الأمور بالتعمق
في التفكير فيها. ثم يورد أقوال العلماء فيه والذين اعتبروه صاحب بيان جذّاب، وللغة
سلسة، وأنه عالم وفقه ومفسر ومحدث ونحوي وأصولي، خدم العلم والدين. ثم
يصف الآلام والمعاناة التي تحملها مدة حياته، ثم يسرد أسماء أساتذته وتلامذته.
فن أساتذته يذكر: ابن عبد الدائم، وعيسى المطعم، والقاضي تقي الدين بن
سليمان، وابن الشيرازي، وشهاب النابلسي، واسماعيل بن مكتوم، وأنه قد

٤٩ — «الأعلام» خير الدين الزركلي، ج ٦ ص ٥٦.

٥٠ — «أخبار النساء» لابن قيم الجوزية، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص

أخذ العلوم العربية عن علي بن أبي الفتح، والمجد التونسي، وأخذ الأصول عن صفي
الهندي، والفقه عن علي مجد الحراتي وتقي الدين بن تيمية.

أما قائمة تأليف ابن القيم فقد أوردتها كما يلي: «اعلام الموقعين عن رب
العالمين» و «بدائع الفوائد» و «أخبار النساء» و «إغاثة اللهفان من مصائد
الشیطان» و «إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان والسكران» و «التيبان في
أقسام القرآن» و «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» و «الجواب
الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» و «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» و «زاد
المعاد في هدى خير العباد» و «كتاب الصلاة وحكم تاركها» و «عنة الصابرين
و ذخيرة الشاكرين» و «الكلم الطيب» و «تفسير المعوذتين» و «مدارج
السالكين» و «الطرق الحكيمة» و «الوابل الصيب من الكلم الطيب» و
«الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» و «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».^{٥١}

ولكن على الرغم من كل هذا الثناء الذي يسبغه بعض الكتاب
المعاصرين على ابن القيم من حيث سعة اطلاعه وكثرة مطالعته، فإن المتبصر
المتعمق في قراءة تأليفه يدرك بكل وضوح أنه، مثل استاذة ابن تيمية، قد وقع في
كثير من المزالق والأخطاء والانحرافات، منها رؤية الله رؤية حسية — كما سبق
ذكرها — فعلى الرغم من وضوح الخطأ في هذا الرأي، فإن ابن القيم يتبناه. وهو في
قصيدته المطولة باسم «الكافية الشافية» يصرح بهذا الرأي الغلط ويشرحه.

على كل حال، ابن القيم، في نظرنا، مثل أستاذة ومعلمه وإمامه، قد وقع
في مزالق الانحراف العقائدي، وقد ابتلي بتلك الأفكار المعوجة نفسها التي ابتلي بها
أستاذة. إلا أننا لسنا بصدد بحث انحرافات الفكرية.

المذهب الوهابي ومؤسسه

«ينسب مذهب الوهابية الى محمد بن عبد الوهاب بن سليمان الذي ينتهي

٥١ — «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن قيم الجوزية، تصحيح صابريوسف، طبع المؤسسة
الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

نسبه إلى وهيب التميمي.

وفي «خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام» للشيخ أحمد بن زيني دحلان: «ولد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١١ وتوفي سنة ١٢٠٧ فيكون عمره ستاً وتسعين سنة. أخذ في أول أمره عن كثير من علماء مكة والمدينة وكانوا يتفرسون فيه الضلال والإضلال، وكان والده عبد الوهاب من العلماء الصالحين، وكان يتفرس فيه ذلك ويذمه كثيراً ويحذر الناس منه، وكذا أخوه سليمان ابن عبد الوهاب أنكر عليه ما أحدثه، وألف كتاباً في الرد عليه. وكان في أول أمره مولعاً بمطالعة أخبار مدعي النبوة كمسيلمة، وسجاح، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي، وأمثالهم. وخلف محمد بن عبد الوهاب بعده أربعة أولاد، وهم عبدالله وحسن وحسين وعلي، فقام بالدعوة بعده عبدالله أكبرهم، ولما مات خلف سليمان وعبد الرحمن، وكان سليمان متعصباً تعصباً شديداً في أمرهم فقتله إبراهيم باشا سنة ١٢٣٣ وقبض على عبد الرحمن وأرسله إلى مصرفات بها. وخلف حسن عبد الرحمن وولي قضاء مكة أيام استيلاء الوهابيين عليها. وعمر عبد الرحمن حتى قارب المئة. وخلف عبد اللطيف. وخلف كل من حسين وعلي أولاداً كثيرين ولم يزل نسلهم باقياً بالدعوة إلى الآن، يسمونهم أولاد الشيخ.

وكان القائم بنصرة محمد بن عبد الوهاب ونشر عقيدته محمد بن سعود ثم ولده عبدالعزيز ثم ولده سعود. انتهى ملخصاً.

وسعود بن عبدالعزيز هو الذي غزا العراق ومنع المسلمين من الحج فانقطع الحج في زمانه عدة سنين كما سيأتي.

وقال ملطبرون في جغرافيته المترجمة من رفاة بك ناظر مدرسة الألسن وقلم الترجمة بمصر، المطبوعة بمصر: أصل المذهب الوهابي أن العرب سبوا أهل اليمن تحدثوا بأن راعياً فقيراً اسمه سليمان رأى في منامه كأن شعلة نار خرجت منه وانتشرت في الأرض وصارت تحرق من قابلها. فقَصَّها على معبرٍ فعبرها بأن ولدأ له يحدث دولة قوية. فتحققت الرؤيا في حفيده محمد بن عبد الوهاب. فلما كبر محمد صار محترماً عند أهل بلده بسبب هذه الرؤيا التي لا يعلم أنها كانت أم لا، فأول

أمره بَيِّن مذهبه سرا فاتبعه جماعة، ثم سافر إلى الشام فلم يتبعه أحد، فرجع إلى بلاد العرب بعد أن غاب عنها ثلاث سنين، وجاء إلى بلاد نجد وأظهر هذا المذهب، فتبعه عليه سعود، وكان شهها حازما، وتقوى كلُّ منها بالآخر، فتوى سعود إمارته من طريق الدين باتباعه محمد بن عبد الوهاب على مذهبه، وقوى ابن عبد الوهاب دعوته من طريق السيف باتباع سعود له وانتصاره به فكان سعود الأمير الحاكم وابن عبد الوهاب الرئيس الديني، وصارت ذرية كل منها تتولى مرتبة سلفها وبعد أن صار سعود حاكما على قبيلته تغلب على قبيلتين من اليمن، ودانت بهذا المذهب قبائل كبيرة من العرب وجميع أعراب نجد واختاروا مدينة الدرعية قاعدة بلادهم، وهي في الجنوب الشرقي من البصرة. وبعد خمس عشرة سنة اتسعت ولاية سعود وهويطمع في الزيادة. وكان يأخذ من يطيعه عشر المواشي والنقود والعروض، بل والأنفس، فيأخذ عشر الناس بالقرعة، فجمع أموالا عظيمة وصار جيشه يربو على مئة وعشرين ألف مقاتل. انتهى.

ومرة أخرى نعود إلى «خلاصة الكلام» الذي جاء فيه: «كان ابتداء ظهور محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٤٣ واشتهر أمره بعد الخمسين فأظهر العقيدة الزائفة بنجد وقرأها، فقام ينصره محمد بن سعود أمير الدرعية فحمل أهلها على متابعتة فتابعوه ومازال يطيعه كثير من أحياء العرب حتى قوي أمره فخافته البادية، وكان يقول لهم إننا ادعوكم إلى التوحيد وترك الشرك بالله.

وعن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكري الآلوسي أن ابن عبد الوهاب نشأ في بلدة العيينة من بلاد نجد فقرا على أبيه الفقه على مذهب أحمد بن حنبل، وكان منذ صغره يتكلم بكلمات لا يعرفها المسلمون وينكر عليهم أكثر الذي اتفقوا على فعله، لكنه لم يساعده على ذلك أحد، فسافر من العيينة إلى مكة المشرفة ثم إلى المدينة فأخذ عن الشيخ عبدالله بن ابراهيم بن سيف، وشدد النكير على الاستغاثة بالنبي (ص) عند قبره. ثم رحل إلى نجد، ثم إلى البصرة يريد الشام. فلما ورد البصرة أقام فيها مدة وأخذ فيها عن الشيخ محمد المجموعي، وأنكر على أهلها أشياء كثيرة، فأخرجوه منها، فخرج هاربا وبعد عدة تحولات وصل إلى بلدة حرمة من

نجد وكان أبوه بها فلازمه وقرأ عليه وأظهر الإنكار على مسلمي نجد في عقائدهم،
فناه أبوه، فلم ينته، حتى وقع بينها نزاع ووقع بينه وبين المسلمين من حرمة جدال
كثير، فأقام على ذلك. سنتين حتى توفي أبوه سنة ١١٥٣ فاجترأ على إظهار عقائده
والإنكار على المسلمين فيما أطبقوا عليه، وتبعه حشالة من الناس إلى أن غص أهل
البلد من مقالاته وهموا بقتله، فانتقل من حرمة إلى العيينة، ورئيسها يومئذ
عثمان بن أحمد بن معمر فأطعمه ابن عبد الوهاب في ملك نجد، وساعده عثمان
وأعلن النكير على المسلمين فتبعه بعض أهل العيينة وهدم قبة زيد بن الخطاب التي
عند الجبيلة، فعظم أمره، وبلغ خبره سليمان بن محمد بن عزيز الحميدي صاحب
الأحساء والقطيف وتوابعها، فأرسل سليمان كتاباً إلى عثمان يأمره فيه بقتله
ويهدده على المخالفة، فلم تسعه مخالفته، فأرسل إليه وأمره بالخروج من مملكته.
فقال له: إن نصرتي ملكت نجداً. فلم يسمع منه، فخرج إلى الدرعية سنة ١١٦٠
(وهي بلاد مسيلمة الكذاب) وصاحبها يومئذ محمد بن سعود من قبيلة عنيزة فتوسل
بامرأة الحاكم إليه وأطعمه في ملك بلاد نجد، فتبعه وبايعه على قتال المسلمين،
فكتب إلى أهل نجد ورؤسائهم وقضاتهم يطلب الطاعة، فأطاعه بعضهم،
وبعضهم لم يحفل به، فأمر أهل الدرعية بالقتال، فأجابوه وقاتلوا معه أهل نجد
والأحساء مراراً كثيرة حتى دخل بعضهم في طاعته طوعاً أو كرهاً، وصارت إمارة
نجد جميعها لآل سعود بالقهر والغلبة. ومات ابن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦. ثم مات
محمد بن سعود فخلفه ولده عبدالعزيز وقام بنصرة هذا المذهب، وقاتل عليه،
وبلغت سراياه وعماله أقصى بلاد نجد. ثم مات عبدالعزيز فخلفه ولده سعود وكان
أشد من أبيه في التوهب فنع المسلمين عن الحج، وخرج على السلطان، وغالى في
تكفير من خالفهم. ثم مات سعود وخلفه ابنه عبدالله. انتهى.

وفي «خلاصة الكلام» إن الوهابيين أرسلوا في دولة الشريف سعود بن
سعيد بن زيد المتوفى سنة ١١٦٥ ثلاثين من علمائهم فأمر الشريف أن يناظرهم
علماء الحرمين فناظرهم فوجدوا عقائدهم فاسدة، وكتب قاضي الشرع حجة
بكفرهم وسجنهم، فسجن بعضهم وفرّ الباقيون. ثم في دولة الشريف أحمد المتوفى سنة

١١٩٥. أرسل أمير الدرعية بعض علمائه فناظرهم علماء مكة وأثبتوا كفرهم، فلم يأذن لهم في الحج. انتهى ملخصاً.

وهذا المذهب وإن كان ظهوره وانتشاره في زمن محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر، إلا أن بذره قد بذر قبل ذلك من زمن أحد بن تيمية في القرن السابع وتلميذه ابن قيم الجوزية وابن عبد الهادي ومن نسج على منوالهم^{٥٢}.

طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

يقول ابن بشر: «عندما استوطن الشيخ محمد الدرعية، كان أهل المدينة أشد ما يكونون جهلاً، يتهاونون في أداء الصلاة وأداء الزكاة، ويتقاعسون في إقامة الشعائر الدينية. فبدأ الشيخ بتلقيهم معنى «لا إله إلا الله» باعتباره نفيًا وإثباتًا، فجزؤه الأول «لا إله» ينفي جميع المعبودات، وجزؤه الثاني «إلا الله» يثبت العبادة لله الأحد الذي لا شريك له. ثم علّمهم مبادئ يمكن بواسطتها معرفة الأدلة على وجود الله، كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار. كما علّمهم أن الاسلام يعني التسليم لأوامر الله، والابتعاد عن نواهيه. كذلك علّمهم أركان الاسلام ومعرفة نبي الاسلام (ص) وأسمه ونسبه وكيف بعث وهاجر، وكيف أن دعوة النبي (ص) الأولى كانت كلمة «لا إله إلا الله»، كما بيّن لهم موضوع يوم القيامة، وبالغ كثيراً في منع الاستغاثة بالخلق، كائناً من كان.

بعد ذلك كتب الشيخ محمد رسائل الى رؤساء نجد وقضاتها، يطلب منهم أن يطاوعوه وينقادوا إليه، فتبعه فريق، ورفض أتباعه آخرون واستهزأوا بدعوته، وسخروا منه، واتهموه بالجهل وعدم المعرفة. وقال عنه فريق إنه ساحر، ونسب، اليه آخرون أموراً قبيحة.

فدعا الشيخ أهل الدرعية إلى القتال، فحاربوا أهل نجد عدة مرات حتى أخضعوهم لإطاعة الشيخ، وسيطر آل سعود على نجد وقبائلها.

٥٢ — «كشف الارتباب في أتباع محمد بن عبد الوهاب» للسيد محسن الأمين العاملي، الطبعة الخامسة، ص ٣-٧.

كانت طريقة الشيخ بالنسبة للغنائم أن يتصرف فيها حسب هواه، حتى أنه كان أحياناً يعطي جميع الغنائم التي تكون من نصيبه، وهي لم تكن قليلة، إلى شخصين أو ثلاثة. كانت الغنائم توضع بأجمعها تحت تصرف الشيخ، وحتى أمير نجد لم يكن لينال شيئاً إلا بأمر من الشيخ. كما إن أمير نجد ما كان يجهز الجيوش ولا يبدي وجهة نظر إلا بإجازة وأمر من الشيخ.

يقول الألوسي: لم يسبق لأهل نجد أن اطاعوا أيَّ عالم من علمائهم كما أطاعوا أوامر الشيخ محمد، وهذا أمر عجيب، وأتباعه يعتبرونه حتى اليوم (أيام الألوسي) إماماً كأحد الأئمة الأربعة (إبي حنيفة، والشافعي، والمالكي، وأحمد بن حنبل)، وإذا ما ذكره أحد بسوء قتل.

يقول زيني دحلان: إن من أعمال الشيخ محمد أنه كان يطلب ممن يتبعه أن يخلق رأسه، وهذا ما لم يفعله أيُّ من طوائف الخوارج وأهل البدع. وكان السيد عبدالرحمن أهدل، مفتي زبير، يقول إنه لا حاجة لتأليف كتاب في الرد على الوهابيين، إذ يكفي أن نتذكر حديث رسول الله (ص) الذي قال: «سيماهم التحليق». وقد اتفق أنَّ امرأة أُجبرت على قبول مذهبه، فوفقت أمام الشيخ وقالت له: إنك عندما تأمر بخلق رأس المرأة، عليك أن تأمر بخلق لحى الرجال أيضاً، لأن شعر رأس المرأة زينة لها، ولحية الرجل زينة له، فلم يستطع الشيخ أن يرد بشيء^{٥٣}.

نهاية ابن عبد الوهاب

بعد أن فتح أتباع الشيخ محمد مدينة الرياض، من مدن نجد، واتسعت أرضهم واستتب الأمن في الطرقات وخضع لهم العتاة، عهد الشيخ بأموال الناس وبالأموال والغنائم إلى عبدالعزیز بن محمد بن سعود، وانصرف هو إلى العبادة والتدريس. غير أن عبدالعزیز وأباه لم يتركاها وشأنه، فكانت جميع الأعمال تتم بأمره وبإشرافه. واستمرت الحال على هذا المنوال حتى مات الشيخ محمد سنة

٥٣ — «وهابيان» ص ١٥٣.

مؤلفات محمد بن عبد الوهاب

في مقدمة كتاب «كشف الشبهات» وردت قائمة بأسماء مؤلفات الشيخ التالية:

«كشف الشبهات» و «تفسير كلمة التوحيد وأدلتها» و «تلقين أصول العقيدة للعامة» و «معنى الطاغوت ورؤوس أنواعه» و «مختصر سيرة الرسول» و «هذه مسائل» و «بعض فوائد صلح الحديبية» و «ستة مواضع من السيرة» و «نواقض الاسلام» و «أحكام تمنى الموت» و «مختصر الانصاف والشرح الكبير» و «نصيحة المسلمين» و «تفسير بعض سور القرآن» و «الأصول الثلاثة» و «أربع قواعد من قواعد الدين» و «ثلاث مسائل» و «أحكام الصلاة» و «مختصر زاد المعاد» و «مختصر تفسير سورة الأنفال» و «الأصل الجامع لعبادة الله وحده» و «مسائل الجاهلية» و «فضل الاسلام» و «أربع قواعد تدور الأحكام عليها» و «كتاب الكبائر» و «أصول الايمان» و «أحاديث في الفتن والحوادث» و «الرسائل الشخصية» و «كتاب الطهارة» و «الخطب المنبرية» و «فضائل القرآن» و «القواعد الأربع» و «ستة أصول عظيمة مفيدة» و «شروط الصلاة وأركانها وواجباتها» و «مجموع الحديث» في اربعة مجلدات، و «مبحث الاجتهاد والخلاف» و «الرد على الرافضة» و «فتاوى ومسائل» و «تفسير آيات القرآن الكريم» و «مفيد المستفيد في حكم تارك التوحيد» و «رسالة في توحيد العبادة» و «مختصر صحيح البخاري» و «آداب المشي الى الصلاة». ٥٥

وقيل إن أهم كتبه هو «كتاب التوحيد» الذي غيّر مسير التاريخ ولعب دوراً مهماً في تاريخ الإصلاح والتجديد^{٥٦}. مع أننا بمطالعة هذا الكتاب نجد أنه

٥٤ - المصدر نفسه، ص ١٥٥.

٥٥ - «إزالة شبهات» ترجمة أبي خالد فضل الله عن «كشف الشبهات» تأليف محمد بن عبد الوهاب، ص ٢٨.

٥٦ - المصدر نفسه، مقدمة المترجم.

ليس سوى تكرار لتلك الأقوال التافهة السطحية التي وردت على لسان ابن تيمية وابن القيم، وغير حفنة من البهم والشتائم للمسلمين. إنه لا يتعدى مجموعة من الانطباعات الساذجة والبدائية عن ظواهر الآيات القرآنية وبعض الأحاديث. ثنبئ عن أي بحث عميق وفي دقيق في مضامينها.

صحيح أن هذا الكتاب قد بدّل مسير التاريخ وغيّر اتجاهه، ولكن لا بدّ أن نضيف أنه غيّر من السير نحو تجديد مجد المسلمين وعظمتهم وشوكتهم إلى السير نحو الانحطاط والفرقة، وفناء المسلمين والافتتال فيما بينهم، وتشتيت شملهم وتفريق جمعهم. كان هذا الكتاب وسائر مؤلفات الشيخ محمد من أفكك الأسلحة ضد اتحاد المسلمين، لتفريقهم وتشتيتهم. والمستعمرون الذين لقّنوا هذا المذهب وهذه الأفكار لابن عبد الوهاب وأملوها عليه، كانوا أكبر المنتفعين بها، وما يزالون. إنه لمن العجيب أن يراه بعض الكتاب والمفكرون المسلمون — كما يراه الأجانب من المستشرقين المغرضين الحاقدين على الإسلام — «مجدداً» و«مصلحاً» ويعتبرون دعوته دعوة إصلاحية جاءت تهدي المسلمين، فيمجدونه ويستحسنون آراءه وأفكاره الثورية! ٥٧

إننا قبل أن نباشر بتناول الأسس العقائدية للوهابية بالنقد والتحليل، وبتقوم آراء محمد بن عبد الوهاب وأفكاره، نشير إلى أهم الاختلافات الموجودة بين دعوة ابن تيمية ودعوة محمد بن عبد الوهاب، ومن ثم نعالج أفكار هذا (المجدد الكبير) الإصلاحية التي لم تشر سوى الهلاك والتدمير والفرقة في دنيا الإسلام وبين المسلمين.

في معرض بيان الاختلاف بين دعوة ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، يقول محمد أبوزهرة: «لم يصف الوهابيون، في الحقيقة، شيئاً على مقالته، ابن تيمية، ولكنهم كانوا أنشط في العمل من ابن تيمية، وحققوا أموراً لم يتعرض لها ابن تيمية، وخلاصة تلك الأمور هي:

٥٧ — «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» تأليف أحمد أمين، ص ١٠.

١ — لم يكتف الوهابيون بما قاله ابن تيمية عن قصر العبادة على ما أقره الاسلام في القرآن والسنة، بل اعتبروا الأمور العادية خارج منطقة الاسلام، فحرّموا التدخين، مثلاً، وتشددوا في تحريمه، والوهابي العامي يعتبر المدخن كالمشرك . وفي هذا هم أشبه بالخوارج الذين يعتبرون كل عاص كافراً.

٢ — في أول الأمر حرّموا على أنفسهم شرب القهوة وأمثالها، ولكن يبدو أنهم قد تساهلوا عليها بعد ذلك .

٣ — لم يكتف الوهابيون بالدعوة المجردة، بل حاربوا مخالفهم بحجة أنهم يحاربون البدع، كان قائدهم في الحرب (في أول الامر) محمد بن سعود، جد آل سعود، وصهر محمد بن عبد الوهاب .

٤ — كان الوهابيون إذا ما استولوا على قرية أو مدينة هدموا ما فيها من الأضرحة والقبور، فأطلق عليهم بعض الكتاب الأوروبيين صفة «هادمي المعابد» وهو قول غير صحيح، لأن المعابد غير القبور، ولكن الظاهر أنهم كانوا يهدمون أيضاً المساجد الملحقة بالقبور .

٥ — ولم يقتنعوا بهذا أيضاً، بل هدموا حتى القبور المتميزة ذات العلام البارزة، وبعد أن استولوا على الحجاز هدموا قبور صحابة الرسول (ص) وساووها بالأرض، ولم يبق منها اليوم سوى بعض الآثار، وهم لا يميزون لمن يزور القبور سوى أن يقول «السلام عليك» لصاحب القبر.

٦ — يهتم الوهابيون بأمور تافهة وينكرونها، مع أنها ليست من عبادة الأصنام، ولا هي تؤدي إلى عبادتها، منها، مثلاً، التصوير الذي يذكره علماءهم في رسائلهم وفتاواهم، غير أن امرأهم لم يلقوا بالاً لتلك الأقوال .

٧ — وسع الوهابيون مفهوم «البدعة» بشكل عجيب، حتى أنهم اعتبروا إسدال الستار على الروضة المحمدية الشريفة بدعة، ومنعوا تجديد تلك الأستار حتى غدت الأستار الموجودة خلقة بالية .

ألحق أن الوهابيين قد أحيوا آراء ابن تيمية، وسعوا في تحقيقها بكل شجاعة، ولكنهم وسعوا معنى البدعة، واعتبروا ما لا علاقة له بالعبادة بدعة، مع

أن البدعة هي مالا أساس له في الدين مطلقاً، ولكن العاملين بها يقومون بها بقصد العبادة وللتقرب إلى الله. وعليه، فإن أموراً مثل تغطية الروضة الشريفة بالأستار ليست بنية العبادة، وإنما للزينة وإضفاء ما يسر الناظرين إليها، كما هي حال الزينات الأخرى في المسجد النبوي.

والغريب في الأمر أنهم ينكرون أستار الروضة النبوية، ولكنهم لا ينكرون تزيين المسجد. والأمر الآخر هو أن العلماء الوهابيين يعتقدون أن أفكارهم وآراءهم هي الصحيحة، وآراء غيرهم هي البعيدة عن الصواب».^{٥٨}

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهاية ﴾

نقد وتحليل لأسس العقيدة الوهابية

سنقوم، بعون الله، في هذا الفصل بنقد زبدة أفكار مؤسس الوهابية وتحليلها، ونقوم آراءه ونشمنها.

إن المواضيع التي بحثها محمد بن عبد الوهاب^{٥٩} كثيرة جداً وتغطي ميداناً واسعاً، بحيث أننا لو أردنا أن نتناول كل واحدة منها بالتحليل لكان علينا أن نؤلف عدة كتب منفصلة ومسهبة. لذلك لا مناص من أن نتناول أسس أفكاره ومختارات من نظرياته بشأن اتجاهاته العقائدية مما يكفيننا في بيان مدى عمق انحرافاته عن تعاليم الإسلام السامية، متجنبين الدخول في التفاصيل.

إن ما يستلفت النظر أكثر من غيره في كتابات مؤسس الوهابية هو ادّعاؤه بالتوحيد الخالص النقي، والدعوة إليه، و«محاربة كل أنواع الشرك والكفر وعبادة الأصنام» والنهي عنها. من الممكن اعتبار الفكرة المحورية التي يدور حولها المذهب الوهابي فكرة «الدعوة الى التوحيد والنهي عن الشرك وعبادة الأصنام» إذ إن التوحيد والدعوة له هو القاعدة الأساس التي تقوم عليها آراء ابن عبد الوهاب ونظرياته. إلا أن هؤلاء قد تاهوا عن منفذ الخلاص وضيعوه، ووقفوا، عملياً، ضد

٥٩ — معظم هذه البحوث والآراء التي نقلت عن محمد بن عبد الوهاب وردت في كتبه الثلاثة: «التوحيد الذي هو الحق على العبيد» و«كشف الشبهات» و«الرد على الرافضة» الذي يرد فيه على مذهب التشيع.

التوحيد والاستسلام لمختلف أنواع الشرك وعبادة الأصنام، وسقطوا في مأزق مروع هو العداء والتخاصم مع أهل التوحيد والمتدينين وعباد الله.

يرى مؤسس الوهابية أن التوحيد هو أصل الأصول، وأساس الأعمال، وحق الله الواجب على البشر، والهدف الأصلي لدعوات الأنبياء. إننا في هذا نوافقه، ولكننا نقول إن التوحيد الذي يتحدث عنه ليس ذلك التوحيد الذي دعا رسل الله والأديان الحققة الناس إليه، بل هو توحيد جاء وليد استنباطات خاطئة، ونتيجة للانحرافات الفكرية التي أخذت بخناق بائي الوهابية، وهو توحيد لا ينسجم ولا يتفق مع التوحيد الإلهي الذي جاء به الاسلام.

ولكي نلقي مزيداً من الضوء على البحث نقول:

محمد بن عبد الوهاب يقول: «الغلو في الصلاحين، مثلاً وثنية. ومن أشكال الغلو عبادة القبور، أو عبادة الله عندها. والنذر لغير الله. واتخاذ شفيع من دونه وثنية».^{٦٠}

ويقول أيضاً: «والتوحيد. في الألوهية هو أن لا يدعى ولا يرجى إلا الله وحده لا شريك له، ولا يُستغاث بغيره، ولا يذبح لغيره، ولا ينذر لغيره، لا الملك مقرب ولا نبي مرسل. فمن استغاث بغيره فقد كفر، ومن ذبح لغيره فقد كفر، ومن نذر لغيره فقد كفر، وأشبه ذلك».^{٦١}

ويقول: «... فالذين يزعم أهل الشرك في زماننا أنهم وسائطهم، الذين يسمونهم الأولون الآلهة، والواسطة هو الإله، فقول الرجل، لا إله إلا الله إبطال للوسائط».^{٦٢}

والظاهر أن ابن عبد الوهاب يتصور نفسه الوحيد الذي يحامي عن «التوحيد» و «أهل التوحيد» وكأن ليس في عالم الموحدين غيره، وأن أحداً غيره

٦٠ — «الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب» من سلسلة «ديوان النهضة» تأليف ادونيس وخالدة سعيد. دار العلم للملايين. بيروت. ص ٨.

٦١ — المصدر نفسه، ص ٦١.

لم يدرك معنى التوحيد، وأنه هو وحده الذي فهم المعنى الحقيقي للتوحيد، وأنه لذلك قام يدفع عن التوحيد ويحافظ عليه من خطر الشرك والكفر والزندقة وعبادة الأصنام، مع أنه في الحقيقة لم يشم حتى رائحة التوحيد الخالص النقي الاسلامي القرآني. وإلا لما فتح فاه بمثل هذا الكلام.

يقول محمد بن عبد الوهاب: «ان من نخا نبيا أو ملكا أو ندبه أو استغاث به فقد خرج من الاسلام». ٦٣

ويقول: «من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم كفر إجماعاً». ٦٤

ويقول: «والذبح لغير الله وثنية، بل هو شرك اكبر». ٦٥

وما يستلفت النظر أيضا أن محمد بن عبد الوهاب، مثل استاذيه ومصدري إلهامه الكفري، ابن تيمية وابن القيم، يعتقد بجواز رؤية الله بالعين، ويقول إن المؤمنين يرون الله يوم القيامة بأعينهم هذه التي في رؤوسهم! إننا لكي نقوم آراء محمد بن عبد الوهاب ونحللها لابد لنا من أن نتطرق إلى المواضيع التالية:

١ — الشرك والتوحيد وأنواعهما.

٢ — فكرة إنكار الوساطة في عالم الوجود.

٣ — التوسل بالأنبياء والأولياء.

٤ — الشفاعة.

عند بحث هذه المواضيع سوف ينكشف كذب مزاعم الوهابيين وبطلان عقائدهم المنحرفة، وبُعدهم عن تعاليم الاسلام والقرآن النيرة المحيية. وسوف يجنبنا ذلك الدخول في تفاصيل أفكارهم.

٦٢ — المصدر نفسه، ص ٦٠.

٦٣ — المصدر نفسه، ص ٦٠.

٦٤ — المصدر نفسه، ص ٦٤.

٦٥ — المصدر نفسه، ص ٦٨.

شبهة الشرك

«من الشبهات المهمة التي يثيرها الوهابيون في هذا الباب ويعملون بجد على إدخالها في أذهان العامة السذج هي شبهة «الشرك».

والجدير بالذكر أن الفارقة المذكورة قد مددت حدود معنى كلمة «الشرك» بما لا حدود له، بحيث إنهم في أتفه الحالات يبادرون إلى إلصاق هذه التهمة بأكثر عقائد الشيعة التوحيدية، ويصفون الموحدين الحقيقيين بالمشركين، بكل صفاقة! كما لو كان وضع المعاني للألفاظ والكلمات قد أوكل إليهم، وأنهم مطلقو الحرية في التصرف فيها وتطبيق مفاهيمها، في حين أن لكلمة «الشرك» من حيث العرف الشرعي والمتشريع معنى خاصا ومفهوما متميزا لا يمس أياً من العقائد الحقة للشيعة.

ولتوضيح الامر نشرهنا بصورة إجمالية إلى معنى «التوحيد» ومراتبه المقطوعة بالأدلة العقلية والمستقاة من الآيات القرآنية، ثم نشرع بتوضيح معنى «الشرك» وأقسامه، ثم نشرح عقيدة الشيعة وطراز تفكيرهم في «التوسل» و«التشفع» بأولياء الله والمقربين إلى الله عليهم السلام، لكي يسودَّ وجه الغشاشين».^{٦٦}

التوحيد ومراتبه

«التوحيد» الذي يعني في اصطلاح المؤمنين بالله الاعتقاد بوحدة مبدأ الوجود، ينقسم إلى أربع مراتب، أو، بعبارة أفضل، يقوم على أربع قواعد:

١ - التوحيد في الذات

وهو الاعتقاد بأن الله جل وعلا — الذي حقيقة ذاته هي عين وجوده اللامحدود واللامعلول — واجب الوجود، استناداً إلى الأدلة الواردة في شرح الموضوع، وأنه واحد أحد، أي إنه لا شبهة له، ولا نظير، ولا مثيل، إذ إن سائر

٦٦ — «توسل أزيد كاه عقل، قرآن وحديث» تأليف السيد محمد ضياء آبادي — واحد تحقيقات اسلامي / ص ٧٣.

الكائنات، طَرّاً وعموماً، وجودها عرضي ومحدود ومعلول (ممكّن الوجود).

٢ - التوحيد في الصفات

وهو الإدعان بأن صفات الله الكمالية (الحياة، والعلم، والقدرة، والإدراك، الخ...) هي عين ذاته المقدسة، فلا تغاير بين صفاته وذاته، ولا تمايز بين صفاته ذاتها، بل هو الذات الواحد الأحد، وهو الكمال المطلق غير المحدود عينه، وهو العلم والقدرة اللامتناهية عينها.

وفي هذه الصفات أيضاً ليس لذاته المقدسة شبيه ولا نظير ولا مثيل. وعليه فإن جميع الصفات الممكنة التي يهبها الله هي مصدر الكمال، وما من كائن غيره، جل جلاله، يملك في «ذاته» صفة الكمال المطلق.

٣ - التوحيد في الأفعال

وهو الاعتقاد بأن «الاستقلال» في خلق كل كائن، مهما يكن، منحصر في الله الخالق الأوحد. وعليه، ما من كائن يكون مستقلاً في «الوجود» ولا في «الإيجاد».

إن إيجاد كل تأثير وعمل وخصيصة في كل مخلوق هو معلول تلك القدرة أو القوة التي أرادها الله ووضعها في البنية الوجودية لذلك المخلوق، وهو في كل لحظة قادر على أن يسلبها منه، سواء أكان ذلك «الفاعل» فاعلاً لا إرادياً ومضطراً، كالماء والنار والشمس وأمثالها، أم كان فاعلاً إرادياً ومختاراً، كالإنسان.

فالإنسان، في الوقت الذي يقوم فيه بعمل بإرادته واختياره، تكون تلك الإرادة والمشية وذلك الاختيار قائمة بإذن الله وإرادته ومشيئته، وهو ليس «مستقلاً» في أية لحظة من اللحظات في «الوجود» و «الإيجاد».

إن هذا الاعتقاد بالاستقلال أو عدم الاستقلال في «الأفعال» إنما هو في غير الله، وهو المقياس الصحيح «للشرك» و «التوحيد».

«فالشرك» يعني الاعتقاد باستقلال غير الله في التأثير والفاعلية. و«التوحيد» في الأفعال يعني الاعتقاد بأن «الاستقلال في الأفعال» منحصر بالله وحده جل وعلا.

وبعبارة أخرى «التوحيد في الأفعال» يعني اعتبار جميع المخلوقات «فاعلين بإذن» وعدم الاعتقاد بوجود شريك لله في «الاستقلال في الأفعال»، والاعتراف بأن ليس لأي مخلوق أي تأثير ولا أي خصيصة إلا بإذن الله وبمشيئته، جل جلاله. وبناءً على ذلك فإن «التوحيد في الأفعال» لا يعني نفي الأثر والفاعلية وسلبها من سائر المخلوقات، لأن هذا يخالف الواقع والحقيقة، فنحن نشاهد بأعيننا أن لكل مخلوق من المخلوقات أثراً وخصيصة، تقوى وتضعف بحسب القوة أو القدرة التي وهبها الله له، ومهما يكن تقديرنا (سواء أكان الفاعل ارادياً أم لا إرادياً) تظهر الأفعال من ذلك المخلوق ويكون مؤثراً في ذلك الأثر.

ليس ثمة شك في أن ما ينبت من الأرض، مثلاً، هو النبات الذي قد يكون من خصائصه اللون والرائحة والإزهار، كما قد تكون صفة إشباع الحيوان والإنسان، ومعالجة أمراض المرضى، من أفعال ذلك النبات نفسه، بمثلما أن الأكل، والشرب، واللبس، والقعود، والقيام، والتفكير، والنطق، والكتابة، والحياكة، والبناء، وسائر الأعمال الأخرى كلها من الآثار وجود الإنسان ومن أفعاله.

غير أن هذه الأفعال أفعال إرادية اختيارية صدرت عن فاعل مريد ومختار، أمّا الآثار المختلفة للنباتات فهي أفعال لا إرادية صدرت عن فاعل مضطر فاقد للاختيار والإرادة.

وعليه، فإن للكائنات عموماً صفة «الفاعلية» والتأثير، لذلك لا يمكن القول بأن «التوحيد في الأفعال» يعني سلب «الفاعلية» عن غير الله. بل المعنى الصحيح لهذا «التوحيد في الأفعال» هو سلب «الاستقلال في التأثير» مما سوى الله، وهذا ما لا يتنافى مع القول بـ «التأثير بالإذن» و «الفاعلية بالتسخير» لسائر المخلوقات. و «الشرك» هو إشراك غير الله في أفعال الله، ولكن لا بدّ من التنبيه إلى أن المقصود من «أفعال الله» هو «الاستقلال في التأثير» المحصور في الله وحده، وليس له في هذا أي شريك من مخلوقاته. وإلا فإن كل مخلوق، بقدر ما أفاض الله عليه من القدرة، قادر على الفعل وخلق الأثر، لأن المخلوق إذا أذن له خالقه

بالقيام بعمل، فهذا يعني أن الله قد وهبه قوة تكوينية تجعله قادراً على الفعل والتأثير، حتى إلى الحد الذي يكون معه قادراً على الخلق وإحياء الموتى وإماتة الأحياء، وإبراء المرضى، وإعادة الأعمى بصيراً، كما جاء في القرآن الكريم بشأن عيسى بن مريم عليه السلام.

«إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس... وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني...»^{٦٧}

فهذه الآية تشير بكل وضوح إلى خلق الطير من الطين وإحيائه بالنفخ فيه، وشفاء المصابين بالبرص وبالعشى، وإحياء الأموات النائمين في القبور، من قبل عيسى بن مريم عليه السلام، بإذن الله.

وإنه لمن البديهي أن لا يوصف هذا بأنه اشتراك مع الله، بل يقال عنه إنه القيام بفعل «بإذن» الله! إذ إن ما هو من فعل الله ومختص به إنما هو «الاستقلال في التأثير وفي الخلق»، لا مطلق الإيجاد!

ثم إن الموجودات في العالم لا تصبح، بوجودها، شريكة الله في «الوجود»، وإنما هي قد أصبحت «ذات وجود» بإذن الله، وإن ما يختص بالله هو «ذاتية» الوجود، و«الإستقلال» في «الوجود»، لا مجرد الوجود!

نعم، فكما أن الكائنات في العالم ليست شريكة الله في «الوجود»، كذلك هي ليست شريكته في «الإيجاد»، بل إن «وجودها» و«إيجادها» كلاهما «بالإذن»!

نلاحظ في الآية الكريمة أنها تكرر كلمة «بإذني»، وفي الوقت الذي تجعل المسيح (ع) فاعل «خلق الطير» و«إحياء الأموات» و«شفاء المرضى» فإنها تنفي عنه «الاستقلال» في التأثير و«الأصالة» في العمل، وتؤكد أن «الله» وحده هو الفاعل المستقل والمؤثر بالأصالة.

وقد جاء هذا المضمون في آية أخرى على لسان عيسى (ع):
 «... أني أخلق لكم من الطين كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله...»^{٦٨}

٤ - التوحيد في العبادة

وهذا يعني الاعتقاد بأن ليس سوى الله من يستحق أن يعبد. و«العبادة» تعني التذلل المصحوب بالتقديس. فيرى الانسان الله وجوداً كاملاً، مطلقاً، منزهاً عن كل نقیصة، ويرى أن عليه أن يكون في نهاية التذلل في حضرته. وهذا اعتقاد طبيعي ينشأ من ثلاثة اعتقادات سابق وجودها في قلب الانسان بالضرورة. فعندما يعتقد الانسان أن الوجود الأصيل، والكمال المطلق، والاستقلال في الإيجاد والتدبير، وإعطاء كل أنواع النعم، ودفع كل أنواع البلاء، ينحصر في ذات الله، مبدأ الوجود، لا شك أنه عندئذ يؤمن بأن من يجب أن يسعى الإنسان في جلب رضاه، وأن يخشى غضبه، ويسلم له تسليماً كاملاً، ويسجد في حضرته، وأنه لا شيء تجاهه، وهو كل شيء؛ هو الواحد الأحد الذي لا شريك له. كما أن تعظيم الآخرين وإجلالهم يجب أن يكون بإذن من الله ورضاه. وهذا هو في الواقع معنى «لا إله إلا الله».

وبتعبير آخر يمكن أن نقول: إن مراتب التوحيد القلبية الثلاث، أقصد التوحيد في الذات، وفي الصفات، وفي العمل، هي من أقسام التوحيد «النظري»، أي إنها «معرفة» و«فكر» و«نظرة».

أما المرتبة الرابعة من التوحيد، وهي «التوحيد في العبادة» فهي التوحيد «العملي» أي هي «العمل» والسلوك والسيرة والكدح إلى مبدأ الوجود والكمال المطلق.

كان هذا شرحاً موجزاً لمعنى «التوحيد» وأقسامه وقواعده. وبديهي أن نستنتج أن «الشرك»، مع أخذ ما مرّ بنظر الاعتبار، هو الطرف النقيض للتوحيد

٦٨ - «آل عمران: ٤٩».

في كل مرتبة من مراتبه الأربع، أي إن معنى الشرك والمقصود به في مرتبة «الذات»، وفي مرتبة «الصفات» وفي مرتبة «الأفعال» وفي مرتبة «العبادة» قد اتضح إلى حدِّ ما.

ولكن بما أن موضوع الشرك يرد على نطاق واسع في أقوال الخصم ممَّا يثير الشك والشبهة في معناه، فقد رأينا أن نقوم نحن أيضا بإيراد شرح أوفى، وتحليل أدقَّ له لإزالة الشك والشبهة، ومن الله العون، إنه خير ناصر وخير معين^{٦٩}.

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهاية ﴾

الشرك وأقسامه

«الشرك» يعني القول بوجود شريك لله، وله أربعة أقسام:

١ - الشرك في الذات

وهو أن يقول الانسان بوجود أكثر من مبدأ واحد للعالم، مثل العقيدة «الثنوية» للذين يعتقدون بخالقية «الله» و «الشیطان»، واعتقاد النصارى بالأقانيم الثلاثة (الأب والإبن وروح القدس) في وحدة الجوهر نفسه. وهذه العقيدة تتعارض مع فكرة الوجوب الذاتي للمبدأ، والتي تم إثباتها بطريق البرهان العقلي في مضانها.

٢ - الشرك في الصفات

وهو القول بأن «صفات» الله تكون مضافة إلى «ذاته» المقدسة، كما هي الحال في «الممكنات». وهذه العقيدة تستلزم القول بأن الله عار في ذاته — والعياذ بالله — من كل كمال، كالحياة والعلم والقدرة (إذا اعتبرنا الصفات حادثة)، أو أن لله شريكا في «القدم» (إذا اعتبرنا الصفات قديمة).

بينما الحقيقة — كما قلنا من قبل في «التوحيد» — إن صفات الله هي ذاته عينا، ولا يمكن بأي حال من الأحوال فصل «واجب الوجود» عن الصفات الكمالية، إذ في غير هذه الحالة لا يمكن تصور «واجب الوجود» والوجود اللامحدود. ولنضرب لذلك مثلاً: إن تجريد «السكر» من «الحلاوة» أو «الدهن» من «الدهنية» يعني انعدام «السكر» و «الدهن». فالسكر بلا حلاوة، او الدهن

بلا ذهنية، او «النور» بلا ضياء، لا يعدو أن يكون تصوّراً غير معقول: «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون»^{٧٠}.

٣ - الشرك في الأفعال

وهذا معناه أن يقول الانسان بوجود تأثير مستقل لغير الله في عالم الخلق والتدبير، وأنه شريك لله ونظيره في «الفاعلية المستقلة»، وأنه (أي غير الله) في التأثير والتدبير، بكل أشكاليهما لا يكون محتاجا مطلقا لله، باعتباره مكتفيا ذاتيا ومستقلّا في الإرادة والعمل، سواء أكان تأثيره واستقلاليته بشكل «اشتراك» و«معية» مع الله، أم كان بصورة «تفويض» أمر الخلق والتدبير في العالم.

إن «الاشتراك» في العمل يشبه عمليا قيام شخصين أو أكثر، وبالتعاون مع بعض، برفع حجر ثقيل عن الأرض. ففي هذه الحالة يكون كل منهم محتاجا إلى عون الآخر في رفع الحجر، فهل يمكن القول بأن ما يملكه كل واحد منهم من القوة على رفع الحجر «مستقل» عما يملكه الآخرون من قوة، وأنه لا يحتاج إلى عون الآخرين؟

هنا أيضا، أي في حالة افتراض اشتراك غير الله مع الله (والعياذ بالله)، يكون الله، وبسبب محدودية قدرته، محتاجا إلى قدرة كائن آخر، فهل يكون هذا «الآخر» من حيث ما عنده من قدرة خاصة به، مستقلاً عن الله ولا حاجة له بعون منه؟

أمّا «تفويض» تدبير أمور الخلق في العالم إلى غير الله فيعني أن الله بعد أن خلق المخلوقات فوّض أمر تدبيرها وإدارة أمورها، من حيث الإحياء والإماتة وتوزيع الرزق والإعزاز والإذلال، إلى المخلوقات أنفسهم، أو إلى فريق معين منهم، كاعتقاد اليهود بأن يد الله «مغلولة» عن تدبير أمور العالم، حسبما جاء في القرآن الكريم.

٧٠ - «العنكبوت: ٤٣».

«وقالت اليهود يدا الله مغلولة^{٧١}».

وهناك فرقة يطلق عليهم اسم «الغلاة» أو «المفوضة» يعتقدون أن الله قد فوض أمر الخلق والرزق والحياة والموت والإبراء من الأمراض وحلّ المشكلات وغير ذلك، إلى الأئمة عليهم السلام، وأنه قد تنحّى واعتزل، تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

هاتان العقيدتان (الاشتراك والتفويض) في نظر أهل التوحيد الحقيقي إشراك وباطلتان، لأنها فضلاً عن كونها منيية عنها شرعاً، فإنها مستحيلتان عقلياً، إذ إن اشتراك المخلوق مع الخالق في العمل، أو تفويض العمل إلى المخلوق واعتزال الخالق العمل، ممتنع الحدوث في منطق العقل السليم، لأن المخلوق «الممكن الوجود» المعدم الوجود بذاته، يحتاج لحظة فلحظة إلى «إفاضة» الخالق الفياض ليعفيض عليه «الوجود» حتى يتمكن من «إيجاد» الأثر، فلو أمسك الخالق المتان فيضه عنه للحظة واحدة، لما بقي للمخلوق «وجود» فكيف ببقاء قدرته على «الإيجاد»!

إن تصور «الاستقلال» للوجود «الامكاني» الذي لا واقعية له إلا بالاستناد إلى الخالق «الواجب الوجود» تصور غير معقول، والقول «بالمخلوق المستقل» قول متناقض، لأنه يعني الجمع بين «الوجود» و «العدم» وهذا مستحيل بالضرورة!^{٧٢}

عالم الخليفة له نظام

«إذا ما أشرنا هنا إلى جانب من بحث «فلسفي» عميق بإيجاز؛ لانكون قد ابتعدنا عن المناسبة. وهذا البحث هو:

من المسائل الرفيعة القيّمة التي تتناولها الفلسفة والحكمة الإلهية بالبحث والدرس هي (كيفية الخلق، وكيفية صدور الكائنات عن ذات الباري جلّ شأنه

٧١ — «المائدة: ٦٤».

٧٢ — «توسل» ص ٨٠.

العزير).

يتم في هذا البحث، عن طريق البراهين العقلية المتقنة، إثبات أن «فعل» الله وصدور الأشياء عنه قائم على «ترتيب» و «نظام» معين. وبعبارة أخرى، إن «فاعلية» الله جارية في الأشياء وفق نظام معين و ترتيب متميز.

أي إن «علو» ذات الله جلّ شأنه العزيز وكبرياءه وقديسته اقتضت أن تأتي سلسلة الكائنات، من حيث الخلق وقوة وجودها وضعفه، متتالية طولياً الواحد بعد الآخر، والأشرف فالأشرف.

وكل كائن منها، بحسب رتبته الخاصة، يكون معلولاً لرتبة متقدمة عليه، ويكون هو في الوقت نفسه علة لكائن ذي مرتبة أدنى منه.

وبناء على ذلك، كل هذه «الإيجادات» الكثيرة التي تصدر عن سلسلة العلل والمعلولات المرتبة، هي نفسها «إيجاد» واحد صادر عن مقام «العلية» المتبع وخالقيته تعالى، فهو يقول: «وما أمرنا إلا واحدة»^{٧٣}.

كل ما في الأمر هو أن ذلك الإيجاد والعمل الواحد، في وحدته تلك، له مراتب ودرجات طولية وكثيرة، وتتجلى كل مرتبة من تلك المراتب في صورة خاصة، وتكون منشأ إيجاد مرتبة أدنى منها.

فتتلا، ينعكس نور الشمس عن المرآة إلى الجدار، فلا يكون ثمة شك في أن الضوء على الجدار آت من المرآة، ولكن من البديهي أيضاً أن نور المرآة من الشمس، فهما، في الحقيقة، إشراق واحد يصدر من منبع واحد هو الشمس، فظهر أولاً على المرآة، وثانياً على الجدار، وآلاً فليس هناك أي نور في المرآة لكي ينعكس على الجدار، ولا الشمس ألقت بضوئها على الجدار بدون وساطة المرآة^{٧٤}.

٧٣ — «القمر: ٥٠».

٧٤ — «توسل» ص ٨٧.

لغة ظاهر الشرع المقدس في هذا الباب

«إن نظام الخلق الطولي الذي أثبتته البراهين الفلسفية، قد ورد على لسان القرآن الكريم وأقوال أئمتنا العظام بلغة أبسط وأوضح.

إننا جميعاً نعلم أن آيات القرآن الكريم وأقوال الأنبياء والأئمة عليهم السلام تتحدث عن وجود «الملائكة» و«جنود الله» الذين يؤدون أعمالاً متنوعة، منها «المدبّرات أمراً» و«المقسمات أمراً» و«معقبات» و«حافظين... و كاتبين» و«النازلين بالوحي» و«الذين يقبضون الأرواح» وغيرهم، وأن لكل ملك مقاماً معيناً «وما منّا إلّا له مقام معلوم»^{٧٥}.

ويتحدثون أيضاً عن وجود سلسلة المراتب بين الملائكة أيضاً، فمنهم «العلي» ومنهم «الداني»، وكل ملك «مقرب» يأتمر بأمره، بإذن الله، جمع من الملائكة، يقومون بوساطة الأعوان والأنصار بتدبير الأمور التي فرض الله عليهم القيام بها.

فجبرائيل (ع) هو الملك المكلف بإنزال الوحي، وميكائيل (ع) هو الملك الموكل بالأرزاق، وعزرائيل (ع) هو المكلف بقبض الأرواح، وإسرافيل (ع) هو صاحب «الصور» ومحيي أهل القبور.

وهكذا هنالك ملائكة مكلفون بتدبير الأمور الجوية، كالسحاب والريح والمطر، وغيرهم مكلفون بتسجيل أعمال العباد لمحاسبتهم بعد ذلك يوم الحساب، وهناك الموكلون بالجحيم وبالجنة، ولكل هؤلاء ملائكة تحت إمرتهم، والجميع يطيعون أوامر الله وينفذونها.

وهكذا نلاحظ أن القرآن والروايات تشير بكل وضوح إلى مقامات تدبيرية خاصة بأسماء مثل: العرش، والكرسي، واللوح، والقلم، لتنزيل أحكام الله وتنفيذها في عالم الخليفة. وهناك فريق من الملائكة هم «حملة العرش» وبعضهم «من حول العرش» يقومون بتدبير أمور الكون.

نخلص من ذلك الى أن هذه البيانات الدينية الصريحة تحكي مجموعها عن وجود تشكيلات منظمة، ونظام ذي شكل وترتيب معين في إجراء خلق الكون، وعن صدور سلسلة الكائنات هذه عن مقام الربوبية وفاعلية الله جل وعلا شأنه العزيز.

ومن ذلك تتضح الحقيقة القائلة بأن إرادة الله المتعال في خلق كل كائن لا تكون بدون وساطة كائن آخر، ولا كل كائن آخر يخلق منفردا ومستقلا عن خلق سائر المخلوقات.

إذ إن هذا التصور، فضلا عن كونه مردودا بالبراهين العقلية الدامغة، كما هي مبينة في مظانها، لأنه يؤدي الى ضرب من الهرج والمرج في الخلق، فإنه في منطق الدين المبين مردود أيضا لأنه لا يتفق مع المبدأ المسلم به بشأن «الوساطة في التدبير» والإيمان بوجود الملائكة المدبرة والفاعلة في نظام الحلقة الواسع وأبعاد الخلق المترامية. إن علينا أن لاننسى حقيقة مهمة، وإن لا تغرب عن انظارنا، وهي أن «وساطة» الملائكة في تدبير الأمور بإذن من الله، على اختلاف أنواعها، ومكانة كل واحد منهم في النظام الإلهي، كما جاء في البيانات الدينية الصريحة، إنما هي من نوع الوساطة «التكوينية» و «الإيجادية»، لا من النوع «الاعتباري» المتفق عليه بشأن المناصب والمراكز الاجتماعية التي تسود المجتمعات البشرية، والتي لأساس لها غير ذلك التوافق و «الاعتبار»، فقد ينصب شخص بتوقيع من وزير في منصب المدير العام، مثلا، ويسلب منه ذلك المنصب بتوقيع آخر.

ولكن في تشكيلات النظام الإلهي، عندما يقال، مثلا، إن «ملك الموت» مأذون من قبل الله «بقبض الأرواح» وأنه قد نصب في منصب «قابض الأرواح»، فنحن نعلم أن إذن الله هذا ليس شيئا مكتوبا وموقعا عليه، ولا هو مقام أعطي لذلك الملك المقرب كاتفاق اعتباري. كالاتفاقات البشرية، بل إن إذن الله إذن «تكويني» ومنصب الملك منصب «وجودي». أي إن الله سبحانه وتعالى قد جعل بُنية «عزرائيل» الوجودية بصورة خاصة، وجعل فيها قدرة معينة تمكنه من إماتة الإنسان الحي، فيفرق بين الروح والجسد.

وكذلك «إسرافيل» فهو ملك خلقه الله وفيه من القدرة ما يمكنه من إحياء الأموات، وإعادة الروح إلى أجسادهم الميتة.

وعليه، فإن هذه «الإماتة» وهذا «الإحياء» فعلان صادران من الله، وإن الله هو الفاعل الحقيقي الأصلي، إلّا أن فاعليته، جلّ وعلا، تجلّت عن طريق الملائكة المقربين.

«عزرائيل» يريد أن يميت، ولكن بإرادة الله، والله يريد أن يميت، ولكن عن طريق إرادة عزرائيل. من البديهي أن هاتين الإرادتين ممتدتان طولياً، أي إن إرادة الله إرادة «ذاتية» و «أولية»، وإرادة عزرائيل إرادة «ممنوحة» و «ثانوية». فلا عزرائيل قادر بذاته وبدون إرادة الله أن يميت حياً، ولا الله يريد أن يغيّر ما أقره في «نظام الفعل» و «سننه الثابتة»، فيميت حياً بدون وساطة عزرائيل، إذ إن إرادة الله في الإماتة هي إرادة عزرائيل نفسها في الإماتة، كما إن إرادة عزرائيل في الإماتة هي إرادة الله نفسها في الإماتة:

«إنّا كل شيء خلقناه بقدر، وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر»^{٧٦}.

نعم الأمر أمر واحد، والصنع صنع واحد، إلّا أن هذا الصنع الواحد يتألف من سلسلة من الأسباب والمسببات!

«فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً»^{٧٧}.

لذلك، وعلى الرغم من جميع الواسطات والعمال في نظام الخلق، فإنهم جميعاً في كل لحظة وكل آن متمسكون بسبب الله، خالق الكون، فكل العالم فقير إليه.

«يسأله من في السموات والأرض كلّ يوم هو في شأن»^{٧٨}.

إن نظام العلة والمعلول الذي يُسيّر عالم الخلق هو بذاته إرادة الله «الفعلية» وفعله الدائم، كما إن إرادة الله «الفعلية» وفعله الدائم هما أيضاً نظام

٧٦ — «القمر: ٥٠».

٧٧ — «فاطر: ٤٣».

٧٨ — «الرحمن: ٢٩».

العلة والمعلول بذاته الذي يسيّر عالم الخلق^{٧٩}».

لنتدبر آيات القرآن الكريم بهذا الشأن

على أساس هذا «النظام الطولي» في الخلق نجد القرآن ينسب الفعل الواحد إلى الله حيناً، وإلى الملائكة حيناً آخر، أو في الوقت الذي يسنده إلى الإنسان، يسنده إلى الله وينفيه عن الإنسان. من ذلك قوله:

«وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»^{٨٠}.

فتلاحظ في هذه الآية تعبير «إذ رميت» يثبت الرمي لرسول الله (ص)، وتعبير «مارميت» ينفي الرمي عنه، ثم تعبير «الله رمى» هو نسبة هذا «الرمي» إلى الله. أي إنه في الوقت الذي يثبت فيه «الفاعلية» للإنسان، ينفي «استقلالية» الإنسان في الرمي، ويعتبر الله هو الفاعل «المستقل» بالذات لذلك الفعل.

وفي موضع ينسب فعل قبض الروح إلى الله، فيقول:

«الله يتوفى الأنفس حين موتها...»^{٨١}.

وفي موضع آخر ينسب ذلك إلى ملك الموت، فيقول:

«قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم...»^{٨٢}.

أويقول في موضع آخر:

«حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا...»^{٨٣}.

وحيناً يقول:

«يُدبر الأمر من السماء إلى الأرض...»^{٨٤}.

وحيناً آخر يقول:

٧٩ — «توسل» ص ٨٨.

٨٠ — «الأنفال: ١٧».

٨١ — «الزمر: ٤٢».

٨٢ — «السجدة: ١١».

٨٣ — «الأنعام: ٦١».

٨٤ — «السجدة: ٥٥».

«فالمُدبِّرَات أَمْرًا...»^{٨٥}.

وحيثاً يقول إن «الروح الأمين» هو الذي نزل «بالوحي»:

«نزل به الروح الأمين على قلبك...»^{٨٦}.

وفي موضع آخر ينسبه إلى الله جل وعلا فيقول:

«إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً...»^{٨٧}.

سر الأمر هو ما بيّناه، أي إن «فعل» الله وصدور الأشياء من الله يجري

ضمن «نظام» وتشكيلات مرتبة، والفاعليات التي تجري داخل هذا النظام هي

نفسها فاعليات الله، خالق الكون، والتي يعبر عنها القرآن بتعبير «بإذن الله» كما

في قوله:

«من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه...»^{٨٨}.

«هل من خالق غير الله...»^{٨٩}.

«قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار...»^{٩٠}.

فهو الذي بسط ظل قدرته وسيطرته على كل عالم الوجود، وجعل كل

الكائنات والمخلوقات تحت تدبيره وإرادته القاهرة. غير أن هذا «الخلق» وهذه

«الإرادة» وهذا «التدبير» يجري عن طريق نظام خاص، وكل «معلول» يأتي في

أعقاب «علته» الخاصة به.

نعم، هو الله الذي «يتوفى الأنفس» ويقبض الأرواح، ولكن بوساطة

عزرائيل (ع) وأعوانه، وهو الله الذي يعطي الرزق للمرزوقين:

«وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها»^{٩١}.

٨٥ — «النازعات: ٥».

٨٦ — «الشعراء: ١٩٣».

٨٧ — «الإنسان: ٢٣».

٨٨ — «البقرة: ٢٥٥».

٨٩ — «فاطر: ٣».

٩٠ — «الرعد: ١٦».

٩١ — «هود: ٦».

ولكن على يد ميكائيل (ع) ومساعديه.

هو الله الذي ينزل «الوحي» على قلوب الأنبياء عليهم السلام، ولكن بواسطة جبرائيل (ع) وأتباعه.

هو الله الذي ينزل المطر ويسير الرياح ويحيي الأرض وينبت النبات، ولكن بوجود ضوء الشمس وحرارتها بقدر معلوم.
يقول القرآن الكريم:

«الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل»^{٩٢}.

«إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين»^{٩٣}.

«وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا»^{٩٤}.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، في معرض حديث له مع إسماعيل بن عبد العزيز الذي كان يغالي في اعتقاده بالإمام:

«يا إسماعيل، لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم. إجعلونا مخلوقين...»

بناءً على هذا يتضح بجلاء أن وجود الوسائط والأسباب والعلل بين الله وكائنات الكون لا يتناقض مع خالقية الله وفاعليته المستقلة، ولا ينقض المبدأ المسلم به: «لا خالق إلا الله» و «لا رازق إلا الله» و «لا مدبّر في الخلق والأمر إلا الله» وأخيراً «لا مؤثر في الوجود إلا الله»، بل يبقى كل ذلك على أصالته ودقته وإتقانه، وذلك لأن الفاعل «المستقل» و «بذاته» في العالم هو الله، أما سائر الكائنات، مهما يكن مقامهم، فهم فاعلون «بالأذن»، وكل منهم مأذون بإنجاز عمل معين ضمن القدرة التي يمنحها الله تعالى له بمقتضى خلقه، إلا أن أيّاً منهم ليس «مستقلاً» في «الوجود» ولا في «الإيجاد» ولا يستطيع الوقوف على قدميه، حتى لفترة ارتداد الطرف.

٩٢ — «الزمر: ٦٢».

٩٣ — «الذاريات: ٥٨».

٩٤ — «الإسراء: ١١١».

إن العقل السليم يحكم بأن من كان «ممكناً الوجود» يعتبر بحد ذاته «عدمًا» وفاقداً للوجود، ولذا يستحيل على مثل كائن كهذا أن يكون مبدأ الوجود، وأن تصدر عنه أفعال «الإيجاد» و «الإفناء» و «الإماتة» و «الإحياة». بل إن الوجود «الممكن» (وكل موجود هو ممكن الوجود سوى الله) يكون مستنداً إلى الله ومحتاجاً إلى «القيوم» في الحدوث، والبقاء، والوجود، والإيجاد، بالذات وبالفعل.

«يا اسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم. اجعلونا مخلوقين»^{٩٥} أي إن وجودنا «الإمكاني» لا يطبق تحمل مسؤولية «الخلق» و «الرزق» و «الاستقلال» في الفعل، مما هي من شؤون «واجب الوجود» جل وعلا، فلا تحمّلونا بها.

بل إن ما يليق بمرتبتنا الوجودية هو أن تضعونا في حدود المخلوقية والمربوبية لرب العالمين، عندئذ كل فعل يصدر منا يكون ضمن الفاعلية «بالإذن» استناداً إلى فاعلية الله «بالذات».

نعم، كل فعل يصدر عن الوسائط والأسباب والعلل، يصدر أولاً، وبالذات، عن الله، وثانياً، وبالعرض، عن الوسائط والأسباب والعلل التي إذا انقطع «فيض» الله عنها للحظة واحدة؛ كان ذلك يعني فناء ذواتها وانعدام فعاليتها انعداماً تاماً.

وبديهي أن الفاعلين الذين وجودهم «ظل» لوجود الله، تكون فاعليتهم أيضاً «ظلاً» لفاعلية الله.

ومن باب التمثيل الناقص نقول: كل عمل يصدر عن العين والأذن واليد والرجل وسائر قوى الإنسان الظاهرة والباطنة، والذي يقوم به العضو، قد يسند إلى الإنسان نفسه، فيقول: رأيت وسمعت وكتبت.

ودليل صحة هذين الإسنادين هو أن قوى الإنسان الفاعلة مستقرة في

٩٥ — «بحار الأنوار» ج ٥ ص ٢٧٩، الحديث ٢٢.

«طول» النفس الانسانية الناطقة، وتنفذ أوامرها. وبعبارة أخرى، إنها مظاهر لفعالية النفس، وهي تصدر أولاً وبالذات عن النفس، وثانياً وبالعرض تسند إلى قواها. إن النفس الانسانية الناطقة هي التي تقوم، بوساطة العين بالإبصار، وبوساطة الأذن بالسمع، وبوساطة اليد بالكتابة. ولهذا يقول القرآن: «والله خلقكم وما تعملون»^{٩٦}.

ففي الوقت الذي تسند فيه الآية «أعمال» الإنسان إليه نفسه (ومن تلك الأعمال نختم الأصنام بأيديهم والتي تتحدث عنها الآية)، فتقول: «وما تعملون»، فإنها تنسب خلقها وإيجادها إلى الله، فتقول: «الله خلقكم وما تعملون...».

ولا يخفى علينا، نحن الدارسين، أن «ما» المصدرية، أو الموصولة في الآية، لا تختلفان اختلافاً كبيراً في إيصال المعنى المقصود، وفي الوقت نفسه يفيد الموقف التعليلي في الآية بالنسبة للآية السابقة لها في تأييد الشمولية المطلقة بالنسبة لجميع أعمال الانسان، ويخرجها من التقيد المراد بشأن «الأصنام» (فتنبه!)

ولهذا ليس هناك أي تناقض في آيات مثل «الله يتوفى الأنفس» و «يتوفاكم ملك الموت» و «توفته رسلنا» لأنها جميعاً، في الحقيقة، «فعل» واحد و «فاعلية مستقلة» واحدة، تتحقق في «نظام» يتألف من «الفاعلين الطويلين».

وذلك الفاعل الواحد المستقل هو الله تعالى الذي يصدر فعله الواحد بصورة أفعال كثيرة من فاعلين متوالين يقفون الواحد منهم خلف الآخر، وكلهم يؤدون ما أوكل إليهم من فعل بإفاضة وإشراق من الله وبأمره التكويني، دون أن يستغني أحد منهم للحظة واحدة عن تلك الإفاضة، ومن إشراق «نور السموات والأرض». وبناءً على ذلك تكون النتيجة: «لامؤثر في الوجود إلا الله» و «لاحول ولا قوة إلا بالله».

الله لا يحتاج الى «الوسائط»

إنه لنوع من الضلالة الفاضحة أن يتصور أحد أن الله سبحانه وتعالى، الغني عن كل حاجة، يشعر بالعجز والضعف في قدرته المطلقة لتدبير الأمر في هذا «النظام»، والتشكيلات المنظمة، فيحتاج الى الوسائط والأسباب من الملائكة وغير الملائكة، نعوذ بالله من هذه الضلالة وهذا الوهم.

طبعاً ليس الأمر هكذا، فتلك الذات المقدسة، والسبوح القدوس، الذي تكون جميع أشيائه من ذات وصفات وأفعال، هي عين ارادته الفعلية وأمره التكويني، كيف يمكن أن نتصور أنه جل وعلا يحتاج في الخلق وفي الفاعلية إلى تلك الوسائط، ويكون بعض مخلوقاته «وليًّا من الذل» (العاذ بالله) أو «شريك في الملك» تعالى الله عما يتوهمه الجاهلون علواً كبيراً.

بل إن ضعف المرتبة الوجودية للأشياء هو الذي يجعلها غير جديرة باستقبال «الفيض» مباشرة فحرمها من ذلك، فلم يعد أمامها إلا أن تستظل بظل الكائنات الأعلى منها مرتبة حتى تكون في مجرى تلقي الفيض الإلهي، فتستفيض من رحمة مبدأ الفيض الواسعة، ضمن مرتبة وجودها الخاص.

فتلاً، إن الله هو الذي يحيي الأرض وما عليها، وينبت النبات، وهو الذي يدير المنظومة الشمسية وفق حساب دقيق ومنظم، ولكن الذي لاشك فيه هو أن جميع هذه البركات تفيض من «الشمس» ومن الكرات الأخرى على الأرض و مواليدها. فلولا وجود الشمس لتلاشت كل المنظومة الشمسية وما فيها.

فهل «الشمس» في هذه الحالة تعتبر بالنسبة لله «وليًّا من الذل» و «شريك في الملك» بحيث إن الله — سبحانه وتعالى — لا يكون قادراً، من دون وساطة الشمس، أن ينبت النبات ويحيي الأموات أم إن الأمر غير ذلك، وإن مقتضى بناء الأرض والنباتات ومواليد الأرض الأخرى تستوجب وساطة الشمس والمطر حتى تستفيض من فيض الله تعالى؟

نعم، إن علو مقام ذات الله القدسية من جهة، وتباين مراتب الكائنات علواً ودنواً، من جهة أخرى، يقتضيان أن يجري فيض «الوجود» ونموبركاته ضمن

«نظام» ذي «مراتب» عالية ودانية، فيصل إلى جميع الكائنات عن طريق العلل والأسباب والوسائط. فلا المراتب الدانية في الخلق قادرة، بدون وساطة المراتب العالية، على اكتساب الفيض من مقام الربوبية مباشرة، ولا مقام الربوبية الشامخ المقدس يشاء أن يفيض من إفاضاته على المراتب الدنيا من الخلق من دون وساطة الأسباب والعلل.

«وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم»^{٩٧}.

ولنتأمل في هذه الجملة النيّرة المنقولة قديماً عن فاطمة الزهراء عليها السلام، إذ قالت:

«وأحمد الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السموات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته في خلقه...»^{٩٨}.

وللاستمرار في بحث موضوع التوحيد والشرك ليزداد وضوحاً في أذهان القراء، نورد بحثاً دقيقاً ونافعاً بقلم الاستاذ الشهيد العلامة مرتضى المطهري (قدس سره)، حيث بيّن بكل وضوح الحدود بين التوحيد والشرك ومقاييس التمييز بينهما بدقة. وبإيراد هذا البحث العميق البليغ لا يعود ثمة مجال لرفع الشعارات وخذع العامة واتهام الشيعة ومذهب التشيع النقي بأنه «رفض» وخروج عن الدين. إن الذين هم من أهل البصيرة ومحترمون العقل سوف يستمعون إلى منطقنا وسوف تتضح لهم الحقيقة. أمّا من كان من أهل الشعارات ومخادعة الناس، فسوف يهرب كالحفاش من سطوع أنوار هذه الاستدلالات العقلية والتحليلات العميقة، فيتوارى في غياهب الظلمات، ويترك ميدان العناد والافتراء وإلقاء التهم جزافاً.

الحد بين التوحيد والشرك

«ما الحدُّ الفاصل بين التوحيد والشرك (نظريّين كانا أم عمليّين)؟

اي نوع من الفكر «توحيدي» وأي نوع منه «شرك»؟ أي نوع من الأعمال «توحيدي» وأي نوع منها «شرك»؟

٩٧ — «الحجر: ٢١».

٩٨ — «نهج البلاغة» شرح ابن أبي الحديد، ج ١٦ ص ٢١١.

هل الاعتقاد بكائن غير الله شرك «شرك ذاتي»؟ وهل «التوحيد الذاتي» يعني ان لا نعتقد بوجود أي كائن غير الله (حتى باعتباره خالقاً له، وهو نوع من وحدة الوجود)؟

بديهي أن مخلوق الله هو فعل الله، وفعل الله هذا دليل على أنه شأن من شؤونه، وليس له شأن في قبالة. مخلوقات الله تجليات لفيوضاته، والاعتقاد بوجود مخلوق، من حيث كونه مخلوقاً، يكون متما ومكتملاً للاعتقاد بالتوحيد، لاضد التوحيد. إذن، الحد بين التوحيد والشرك هو وجود شيء آخر أو عدم وجوده، حتى وإن لم يكن من مخلوقاته.

هل الاعتقاد بدور المخلوقات في التأثير والتأثر والسببية والمسببية شرك؟ (الشرك في الخلق والفعل). وهل التوحيد في الأفعال يقتضينا أن ننكر نظام العلة والمعلول في الكون، وأن نقول بأن كل أثر صادر من الله مباشرة وبدون واسطة، وأن لا نعترف للأسباب والعلل بأي دور؟ كأن نعتقد، مثلاً، بأن لا دور للنار في الإحراق، ولا دور للماء في الإرواء، ولا دور للمطر في الإنبات، ولا للدواء في الشفاء، بل نعتقد بأن الله هو الذي يحرق مباشرة ويروي مباشرة، وينبت مباشرة، ويشفي مباشرة، وأن وجود هذه العوامل وعدم وجودها سياتي، وكل ما في الأمر هو أن من عادة الله أن يحقق أفعاله بحضور هذه الأشياء، فمثلاً، كأن تكون من عادة شخص أن يكتب رسائله وقبعته على رأسه، في حين إن وجود القبعة وعدم وجودها لا تأثير له في كتابة الرسائل، إلا أن هذا الكاتب لا يرغب في أن يكتب رسالة وهو حاسر الرأس من دون قبعة. وهذا لا يختلف عن وجود ما يسمى بالعوامل والأسباب وعدم وجودها، وإننا إذا قلنا بغير هذا نكون قد قلنا بوجود شريك، بل شركاء لله في أفعاله (نظرية الأشاعرة والجبريين).

هذه النظرية غير صحيحة. فكما أن الاعتقاد بوجود مخلوق لا يعني الشرك الذاتي أو الاعتقاد بوجود إله ثان أو قطب آخر في مقابل الله، بل هو مكمل ومتمم للاعتقاد بوجود الله الأحد، كذلك الاعتقاد بأن تأثير المخلوقات وسببيتها ودورها في نظام العالم — مع الأخذ بنظر الاعتبار أن ليس للكائنات استقلال ذاتي، ولا

استقلال في التأثير — الموجود بوجوده والمؤثر بتأثيره، ليس شركاً في الخلق، بل هو متمم ومكمل للاعتقاد بخالقية الله وحده.

نعم قد نقول إن للمخلوقات تأثيراً مستقلاً وفيضاً، ونعتبر الله بالنسبة للعلم كالصانع بالنسبة للمصنوع (مثل السيارة وصانعها)، بالنظر لأن المصنوع يحتاج لظهوره إلى صانع، ولكته بعد أن يصنع يقوم بعمله الآلي وفقاً لميكانيكيته. فللصانع دور في الصنع، لا في العمل الذي يؤديه المصنوع بعد الصنع، فإذا مات صانع السيارة، فستبقى السيارة مستمرة في عملها. فإذا كان تفكيرنا هكذا، أي إذا قلنا إن العوامل في العالم، كالماء، والمطر، والبرق، والحرارة، والتربة، والنبات، والحيوان، والانسان، وغيرها، نسبتها إلى الله مثل تلك النسبة (كما يعتقد بعض المعتزلة أحياناً) فهذا شرك لا شك فيه.

إن المخلوق يحتاج في حدوثه وبقائه إلى الخالق، وفي البقاء كما في التأثير لا يقلل احتياجه عن ذلك، فالعالم عينه، والفيض عينه، والتعلق عينه، والارتباط عينه، والاعتماد عينه، هي كلها «من عنديته» عنها. ولهذا فإن تأثير الأشياء وسببيتها هما تأثير الله وسببيته عنها. إن خلاقية القوى والطاقات في العالم، في الإنسان وفي غير الإنسان، هي نفسها خلاقية الله وتصدر بفاعليته، بل إن الاعتقاد بأن دور الأشياء في عمل العالم شرك، يعتبر شركاً. وذلك لأن هذا الاعتقاد قائم على القول، دون وعي، بأن للكائنات استقلالاً ذاتياً في قبال استقلال الله الذاتي، وعلى هذا، فإذا كان للكائنات دور في التأثير، فإن هذا التأثير يعزى إلى أقطاب أخرى غير الله. إذن، فالحد بين التوحيد والشرك ليس القول بوجود دور لغير الله في التأثير والسببية، أو عدم القول بذلك.

هل الحد الفاصل بين التوحيد والشرك هو الاعتقاد بقدرة ما وراء الطبيعة وتأثيرها؟

إن الاعتقاد بوجود قوة هي فوق قوانين الطبيعة العادية يملكها كائن، سواء أكان ملكاً أم إنساناً (كالنبي أو الأئمة) يعتبر شركاً، أما الاعتقاد بالقدرة والتأثر ضمن الحدود العادية والمتعارف عليها فليس شركاً. كما إن الاعتقاد بقدرة

إنسان ميت وتأثيره شرك، لأن الإنسان الميت جمد، والجماد، في القوانين الطبيعية، لا يشعر ولا قدرة له ولا إرادة. لذلك فالاعتقاد بوجود إدراك عند الميت، والسلام عليه وتعظيمه واحترامه ودعوته ومناداته وطلب الحاجات منه شرك، إذ إن ذلك يستلزم القول بوجود قدرة مما وراء الطبيعة عند غير الله، كذلك الاعتقاد بوجود تأثيرات غامضة ومجهولة في بعض الأشياء، كالقول بأن حالة خاصة تؤثر في شفاء الأمراض، أو أن لمكان خاص تأثيراً في استجابة الدعاء، يعتبر شركاً، لأنه يعني الاعتقاد بوجود قوة مما وراء الطبيعة في شيء ما، إذ إن كل شيء طبيعي، يكون قابلاً للعلم وللتجربة ومحسوساً بالحواس. لذلك فإن الاعتقاد بمطلق التأثير في الأشياء ليس شركاً (كما اعتقد الأشاعرة)، ولكن الاعتقاد بأن في تلك الأشياء تأثيرات فوق طبيعية شرك. إذن، ينقسم الوجود إلى قسمين: الطبيعة وما وراء الطبيعة. وما وراء الطبيعة هي المنطقة المختصة بالله، والطبيعة هي المنطقة المختصة بالخلق، أو قل إنها مشتركة بين الله والمخلوقات.

هنالك مجموعة من الأعمال تتصف بكونها فوق الطبيعة، مثل «الإماتة» و«الإحياء»، وتوزيع الرزق، وأمثال ذلك، وسائر الأعمال الأخرى طبيعية ومألوفة. أعمال ما فوق الطبيعة خاصة بالله، وغيرها يقع ضمن قدرة مخلوقاته. هذا من حيث التوحيد النظري.

أما من حيث التوحيد العملي، فإن كل أنواع التوجه المعنوي إلى غير الله، أي التوجه الذي لا يكون عن طريق الوجه واللسان نحو وجهه وأذن المتوجه إليه، بل يكون المتوجه راغباً في إيجاد نوع من العلاقة القلبية والمعنوية بينه وبين الطرف المتوجه إليه، فيدعوه، ويجلب انتباهه، ويتوسل إليه، ويطلب منه حاجاته، فهذه كلها شرك وعبادة غير الله، إذ ما العبادة إلا هذه، وعبادة غير الله غير جائزة بحكم العقل والشرع، وهي خروج عن الإسلام، كما إن القيام بهذه المراسم، وهي مراسم عبادية عملياً لغير الله، لا تختلف عن الأعمال التي يقوم بها المشركون تجاه أصنامهم، وهي تعني الاعتقاد بوجود قوى ما وراء الطبيعة في الأشخاص المتوجه إليهم (النبي أو الإمام) (وهذه نظرية الوهابيين وأتباعهم في هذا العصر).

شاعت هذه النظرية إلى حدٍّ ما في زماننا، وخاصة بين طبقة معينة، ويعتبرونها دليلاً على التنوير.

ولكن إذا أخذنا الموازين التوحيدية بنظر الاعتبار فستكون هذه النظرية، من حيث «التوحيد الذاتي»، قريبة من نظرية الأشاعرة وملوثة بالشرك، أما من حيث «التوحيد في الخلق وفي الفعل» فهي من أشد النظريات شركاً.

سبق أن قلنا عند رد نظرية الأشاعرة أن هؤلاء قد نفوا أن يكون للأشياء تأثير وسببية، زاعمين أن القول بذلك يعني القول بوجود الاقطاب والمناشئ في قبال الله. وقلنا إن الأشياء لا تظهر كأقطاب في قبال الله إلا إذا كان لها «استقلال ذاتي». من هنا يتبين أن الأشاعرة كانوا يعتقدون — دون وعي — بأن للأشياء نوعاً من الاستقلال الذاتي الذي يستلزم الإشراك بالله، ولكنهم كانوا غافلين عن ذلك، فأرادوا بإنكار أثر الأشياء إثبات التوحيد في الخلق، وهكذا، في الوقت الذي أنكروا الشرك في الخلق، أيدوا، دون وعي، نوعاً من الشرل في الذات.

هذا الاعتراض نفسه يصح بالنسبة للنظرية الوهابية والوهابيتين. فهؤلاء أيضاً يقولون، دون وعي أيضاً، بوجود نوع من الاستقلال الذاتي في الأشياء، ولهذا قالوا إن القيام بدور ما فوق الحد الطبيعي يستتبع الاعتقاد بوجود قطب أو قدرة في قبال الله غافلين عن أنَّ الكائن الذي يكون بكل وجوده معلّقاً بإرادة الله، وليس له أيّ كيان مستقل بذاته، يكون تأثيره فوق الطبيعي مثل تأثيره الطبيعي، معتمداً على الله قبل أن يكون خاصاً به، وأنه ليس سوى مجرى يمرّ فيه فيض الله تعالى.

فهل كون جبرائيل هو واسطة فيض الوحي والعلم، أو كون ميكائيل هو واسطة توزيع الرزق، وكون إسرافيل هو واسطة الإحياء، وكون ملك الموت هو واسطة قبض الأرواح، شرك ؟

أما من حيث التوحيد في الخلق، فهذه النظرية من أقيح أنواع الشرك، لأنها تقول بنوع من توزيع الأعمال بين الخالق والمخلوق: أعمال ما وراء الطبيعة يخصصونها لله، والأعمال الطبيعية يخصصونها لمخلوقات الله، أو المشتركة بين الله

والمخلوق. إن القول بمجال عمل خاص للمخلوق ليس سوى الشرك في الفاعلية،
بمثلا أن القول بمجال عمل مشترك ليس سوى نوع آخر من أنواع الشرك في
الفاعلية أيضا.

إن الوهابية، بخلاف ما يتصوره بعضهم، ليست مجرد نظرية ضد الإمامة،
بل إنها قبل أن تكون ضد الإمامة، تكون ضد التوحيد وضد الإنسان. أما كونها
ضد التوحيد، فلأنها تقسم العمل بين الخالق والمخلوق، كما أنها تعتقد بنوع من
الشرك الذاتي الخفي، وقد سبق توضيحه. أما كونها ضد الإنسان، فإنها تنزل بمواهب
الإنسان — تلك المواهب التي رفعته فوق الملائك وجعلته، بنص القرآن، خليفة
الله، وأمر الله ملائكته بالسجود له — إلى درك الحيوان الطبيعي.

ثم إن الفصل بين الميت والحي إلى درجة القول بأن الأموات ليسوا أحياء
حتى في العالم الآخر، وبأن كل كيان الإنسان هو جسده الذي يتحول إلى جناد
بالموت، ليس إلا نظرة مادية وضد الله.

كما إن الفصل بين الأثر المجهول الغامض، والآثار المعلومة، واعتبار
الأول، بخلاف الثاني، مما وراء الطبيعة، يعتبر نوعا آخر من الشرك.

ههنا يتجلى لنا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله والذي مفاده إن
الشرك ينفذ في الأفكار والعقائد ببطء وهذوء ودون ضجة بمثابة تدرج التلوة
السوداء في الليلة الظلماء على صخرة صلبة.

الحقيقة هي أن الحد بين التوحيد والشرك، في علاقة الله بالإنسان والعالم
يتمثل فيما هو «منه وإليه». الحد بين التوحيد والشرك في التوحد النظري يتمثل
فيما هو «منه» (إننا لله). إننا ما دمنا نعتقد بأن كل حقيقة وكل كائن «منه» في
الذات والصفات والأفعال، وفي الخصيصة والهوية، نكون قد عرفناه معرفة
صحيحة ووفق الواقع والمنظور التوحيدي، سواء أكان لذلك شيء أثر واحد أو
أكثر، أم لم يكن له أي أثر، وسواء أكانت تلك الآثار مما وراء الطبيعة أم لم
تكن، لأن الله ليس إلها لما وراء الطبيعة، وللسماء، وللملكوت والجبروت فحسب،
بل هو الله لكل الكون، وقربه إلى الطبيعة ومعيته معها وقيوميته عليها، مثل قربه

إلى ما وراء الطبيعة، وإن اتصاف الكائن بشيء مما وراء الطبيعة لا يمنحه صفة الألوهية.

سبق أن قلنا إن العالم، من حيث وجهة النظر الإسلامية، يتصف بأن ماهيته «منه». إن القرآن في كثير من آياته يعزّو إلى بعض الأنبياء القيام بأعمال معجزة، مثل إحياء الأموات، وإعادة البصر إلى الأعمى. ولكنه يصحب ذلك بكلمة «بإذنه»، وهي كلمة تبيّن أن ماهية هذه الأعمال «منه» لئلا يظن أحد أن للأنبياء استقلالهم الذاتي.

إذن، الحد الفاصل بين التوحيد النظري والشرك النظري هو كون الأشياء «منه». إن الاعتقاد بوجود كائن لا يكون وجوده «منه» شرك. والاعتقاد بتأثير كائن لا يكون تأثيره «منه» شرك أيضاً، سواء أكان التأثير ممّا وراء الطبيعة، مثل خلق جميع السماوات والأرض، أم كان تأثيراً صغيراً تافهاً، مثل قلب ورقة الشجر.

أما الحد الفاصل بين التوحيد والشرك في التوحيد العملي، فهو التوجه «إليه» (إنّا إليه راجعون). إن توجه كل كائن، باطنياً كان أم ظاهرياً، إذا كان نحو الطريق الموصل إلى الله، لا إلى هدف آخر، يكون توجّهاً إلى الله. إن الانتباه في كل حركة ومسيرة إلى الطريق وإلى العلامات والدلائل التي تهدي السائرين إلى الطريق الصحيح لئلا يتيهوا بعيداً عن المقصد، باعتبارها علامات ودلائل فقط، يعتبر «سيراً على الطريق» و «توجّهاً إلى المقصد».

إن الأنبياء والأولياء هم الطرق إلى الله: «أنتم السبيل الأعظم والصراط الأقوم...» إنهم العلامات والدلائل للسير إلى الله: «وأعلاماً لعباده ومنازراً في بلاده وأدلاء على صراطه». وهم الهداة إلى الله تعالى: «... الدعاة إلى الله والأدلاء على مرضاة الله».

وبناءً على ذلك، فإن قضية التوسل، والزيارة، ودعوة الأولياء، وانتظار عمل خارق للطبيعة منهم ليست من الشرك في شيء، بل إن القضية شيء آخر: علينا أولاً أن نعرف إن كان الأنبياء والأولياء قد سمو فعلاً إلى مراتب القرب من

الله بحيث إنهم غدوا موضع فيوضاته إلى هذا الحد، أم لا؟ يقول القرآن الكريم: ان الله قد وهب بعضاً من عباده هذا المقام الرفيع والدرجات العاليات.

القضية الأخرى هي: هل الاشخاص الذين يذهبون للزيارة، ويتوسلون، ويطلبون الحاجات، لهم إدراك سليم، أم لا؟ هل هم يقصدون الذهاب «إليه» عندما يذهبون إلى الزيارة، أم إنهم يغفلون عن أنهم ذاهبون «إليه» ويرون أنهم يقصدون هذا الذي ذهبوا لزيارته؟ لاشك إن أكثر الناس متوجهون توجهها غريزيا إلى الله عندما يذهبون للزيارة. لربما كانت هناك أقلية تفتقر إلى الإدراك التوحيدي (حتى في حده الغريزي)، لذلك لابداً من تعليم هؤلاء معنى التوحيد، لا أن نعتبر الزيارة شركاً.

القضية الثالثة هي أن الأقوال والأفعال التي تحكي التسبيح والتكبير والحمد والثناء الخاصة بالذات الكاملة على الإطلاق، وبالغني على الإطلاق، اذا قصد بها غير الله كانت شركاً. فالسُبُوح المطلق، والمنزه المطلق عن النقص هو الله، والعظيم المطلق هو الله، وهو الذي ينحصر به كل ثناء، وهو الذي به يقوم كل حول وقوة، فإطلاق هذه الصفات، قولاً أو فعلاً، على غير الله، شرك»^{٩٩}.

الوهابية وإنكار الواسطة في عالم الوجود

لقد بحث كبار الحكماء والفلاسفة المسلمون في كتاباتهم ومؤلفاتهم ضرورة وجود «رابط» و «وسيط» في عالم الوجود، وهي بحوث عميقة ومفيدة وقيمة وتثير الطريق أمام طلاب الحكمة والعرفان. لقد أثبت هؤلاء ان الشيتين المتباعدين غاية البعد والمتباينين غاية التباين من حيث الرفع والضعف يحتاجان للاتصال فيما بينهما الى «واسطة» يقوم بإيصال الأثر من «العالى» إلى «السافل». وفي غير هذه الحالة لا يمكن أن يكون هناك أي اتصال أو ارتباط بين كائنين متباينين ومتغايرين ومتباعدين بعض عن بعض.

كذلك ثبت في البحوث الفلسفية العميقة لصدر المتألهين وغيره من

٩٩ - «جهان بيني توحيدى» تأليف الشهيد مرتضى مطهري، ص ٩٣.

الفلاسفة والمحققين والحكماء المتعمقين المسلمين، أن الله تبارك وتعالى مجرد، بل فوق المجرد، وليس فيه أي نوع من النقص، والحدود الوجودية في وجوده اللامحدود لامتناهية، فهو «كل الكمال» و«كله الكمال». وعلى أساس قاعدة كونه «بسيط الحقيقة» (وهي قاعدة لا مجال لبحثها وهي فوق إدراك العقول والأفهام العادية) تتمثل فيه الكمالات على نحو خالص غير مشوب وغير محدود. وهو «شيء لا كالأشياء» بتعبير أئمتنا المعصومين (ع)، أو شيء «بمحققته الشئية» وهي نفسها «حقيقة الوجود» و«حقيقة الحقائق» والتي توصف بلغة العرفان بأنها «نور الأنوار» و«الظاهر المطلق» و«غيب الهوية» و«أحدي الذات» و«عنقاء مغرب».

إننا، من ناحية أخرى، نعلم أن كائنات هذا العالم المادي والمتطفلة على مائدة كرم الله وفيضه اللامتناهي واللامحدود، مادية، وجسمانية، ومحدودة، ومقيدة بالزمان والمكان، وأسيرة المسافة والوجود المحدود، ودائمة التغير والحركة والتطور، لها «شخصية آنية» و«هوية متحركة» وأسيرة الزمان.

ومن الأمور الواضحة الأخرى هي أنه فضلا عن أن الله وحده هو خالق جميع الكائنات: «الله خالق كل شيء»، فإنه كذلك هاديها ومربيها أيضا: «ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى» و«رب العالمين»، والجميع يتحلّقون حول مائدة كرمه ونعمه، وما من أحد يملك بذاته شيئا، والجميع محتاجون إليه، وهو غني عن العالمين: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد». (فاطر/ ١٥).

والآن نقول: إذا لم تكن ثمة واسطة، فالغني المحض، بل «الغني المحض» مع «الفقر المحض»، أو المحض المجرد اللامتناهي من حيث الشدة والمدة والعدة، ما سنخيته؟ وكيف يمكن أن يجالس كائنا ماديا، ترايبا محدودا، متغيرا وجسمانيا؟ «السنخية علة الانضمام»، فكيف يمكن تفسير المجالسة والاتصال بين كائنين متباينين كل التباين؟ إلا اللهم إذا قيل إن هذه الكائنات الترايبية المادية المحدودة، وهي «الغواسق»، تستمد بواسطة «العقول الكلية» التي هي «وسائط

الفيض» و «وسائل» القرب، وباصطلاح الفلاسفة هي «الجالسة بين الحدين»، من «نور الأنوار»، بشكل ما، الفيوضات، وفي ظل اكتساب الفيض من الباري جل جلاله يصل كل كائن إلى كماله الجدير به. هذه الواسطات لفيوضات الله — الأنبياء والأولياء المعصومون (ع) — لما لها من الجوانب الروحية تستمد الفيوضات من الله، ولما لها من الجانب الصوري ترتبط بالخلق وتفيض عليهم من فيوضات الله. هذا البيان الرفيع والبرهان القوي الذي يدلي به الفلاسفة المسلمون بشأن ضرورة وجود الأنبياء هو نفسه الذي يوردونه لضرورة وجود إمام وخليفة للنبي، إذ إن الدليل على ضرورة وجود إمام هو نفسه الدليل على ضرورة وجود نبي.^{١٠٠} من البديهي أن تكون لهذا البحث مقدمات فلسفية صعبة ومستفيضة، لسنّا في هذا الكتاب بصدد الدخول في مباحثها الثقيلة والصعبة، ولكننا لا مفرّاً لنا من توضيح نقطة مهمة، وهي أنه لا محمد بن عبد الوهاب ولا أساتذته، مثل ابن تيمية وابن القيم، كانت لهم أية معرفة بالمواضيع الفلسفية. إن جهلهم هذا — بالإضافة إلى تحريضات الجاسوس الانجليزي، مستر همفري، مندوب وزارة المستعمرات البريطانية، الذي أمر ابن عبد الوهاب باصطناع مذهبه — وكذلك بعد هؤلاء عن العلوم العقلية وعدم اطلاعهم على الفلسفة الإسلامية والحكمة الإلهية، أوقعهم في شبك عبادة الظاهر، والجمود الفكري، والبعد عن التعقل والتفكير. وهذا، بحسب مصطلح المصلحين (!) الحريصين على الحفاظ على الشرع والدفاع عن أصل التوحيد بأرواحهم [يعتبرون جميع صفات الله تعالى، كالقدرة، والعظمة، والعلم، والإحاطة، والحياة، وغيرها، منفصلة عن الكائنات، أي إنهم ينكرون أن تكون «الوساطة» من «الوسائط» و «المرآة» من مرآيات الوجود التي هي مظاهر لذات الله تعالى.

وبناءً على ذلك، فإنهم لا يرون معنى «الظهور والتجلي» في عالم

١٠٠ — «أسرار الحكم» تأليف الحكيم الإلهي الملا هادي السبزواري. ولمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى «المبدأ والمعاد» و «أسرار الآيات» و «مفاتيح الغيب» لصدر المتألهين الشيرازي فيما يتعلّق بالإنسان الكامل، وكذلك إلى «الكلمات المكنونة» للملا محسن فيض الكاشاني.

الإمكان. وهكذا يقعون في محذور لا خلاص لهم منه حتى لو ظلوا يفكرون فيه الى يوم القيامة، وهذا المحذور هو: إننا نشهد عياناً ووجداناً كائنات كثيرة في هذا العالم لها جميعاً حظ من الحياة والعلم والقوة، وليس هناك مجال للشك في أننا لا نستطيع أن ننكر وجود كائنات مؤثرة في هذا العالم.

والآن نقول: إذا اعتبرنا القوة والعلم في الله وحده دون الكائنات الكثيرة، فإن قولنا هذا خطأ وجداناً وشهوداً، إذ إن وجود هذه الصفات في الكائنات من الضروريات المسلّم بها عن يقين. وإذا اعتبرنا أن لهذه الكائنات حياة وقوة وعلماً بصورة مستقلة، حتى وإن قلنا إنها من عطاء الله، فإن قولنا هذا خطأ أيضاً، لأن هذا الكلام هو الشرك بعينه والثنائية نفسها، ويؤدي إلى تعدد الآلهة ومشكلات كثيرة أخرى.

إن «الإعطاء» و «الاستقلال» لا ينسجمان، إذ إن لازمة هذا الكلام هي القول بتولّد الكائنات من ذات الله، وهذا هو «التفويض» بعينه، مع إننا نعلم أن الله «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

وبناء على ذلك، ليس أمامنا من سبيل علمي ولا فلسفي، إلّا أن نقول إنّ كل ما في العالم من كائنات إنّه هي مظاهر لتجليات ذات الله القدسية، أي أن نقول إن القوة والحياة والعلم مختصة بذات الله تعالى، ولكنها تتجلّى وتظهر في هذه المخلوقات كل بحسب سعته وهويته. أي إن «الاستقلال» في الوجود مقصور على الله، بمثلما إن الاستقلال في الحياة والعلم والقوة وسائر الأسماء والصفات منحصر بالله تعالى، وهي في غير الله تكون تابعة وعرضية. إنها في ذات الله أصيلة، وفي الكائنات مرآتية وآياتية.

وعلى ذلك، فلا شك في أن ظهورها أجلى وأظهر في الأرواح المجردة والنفوس القدسية والملائك، وفي نفوس الأنبياء والأئمة (ع) الناطقة المطهرة، وفي الإمام المهدي (عج)، لأن سعتهم الوجودية أكبر من غيرهم، وهم المرايا التي تحكي، بالتمام والكمال، ذات الله وصفاته القدسية.

وعليه، فإن أصول القوة والعلم والحياة المختصة بالله تعالى، ظاهرة للعيان

في هذه المرايا ظهوراً مشهوداً لا يمكن إنكاره لثبوته عقلاً.

الظهور والظاهر، والحضور والحاضر، شيء واحد، فإن «المعنى الحرفي» مندك في «المعنى الاسمي». والكائنات جميعاً، بدون استثناء، آيات وعلامات و«معان حرفية» بالنسبة لله تعالى، وتصور معنى الاستقلال «للمعنى الحرفي» غير معقول، وهو في القياس البرهاني يوجب الخلف.

إن «المعنى الحرفي» و «المعنى الاسمي» ليسا شيئين، لأن «المعنى الحرفي» يبين كيفية «المعنى الاسمي» وخصوصيته، فطلب الحاجة من النبي الأكرم (ص) ومن الأئمة المعصومين (ع) لا يختلف عن طلب الحاجة من الله، وهو التوحيد بعينه. لقد أثبتت الفلسفة الإسلامية المتعالية وجود الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة في الله تعالى. فكما أن الله تعالى يتصف «بالأحادية» التي تعني تنزُّهه عن جميع الأسماء والتعيينات، وأن تلك الاحدية تدل على تلك الذات البسيطة الصرف المجردة من كل تعلق ومفهوم منطبق عليه، كذلك هو يتصف «بالواحدية» التي تلاحظ في ظهوره وطلوعه في عالم الأسماء والصفات الكلية والجزئية، وظهور كل العوالم من ملك و من ملكوت.

يقول الوهابيون: خلق الله العوالم بدون واسطة، وإن الكائنات العلوية وملائكة السماء والأرواح المجردة القدسية، ليس لها أي تأثير في الخلق، وليس لها صفة التوسط، ولذلك فإن الاستغاثة بروح رسول الله (ص) و الأئمة (ع) والملائكة، حتى المقربين منهم، شرك.

نقول في الرد: أوليست الاستغاثة بأرواح الأحياء كنبئ حيٍّ أو إمام حيٍّ شركاً؟ أليست الاستغاثة بالعالم والطبيب والمتخصص والفلاح والعامل شركاً؟

إذا كان ذلك شركاً فلماذا تستعينون بهم؟ إذن اتركوا الاستغاثة في عالم الطبيعة وفي الحياة الدنيا، لتجدوا أنفسكم بعد لحظات أمواتاً، عائدين الى ديار العدم، موطنكم الأصيل!

وإذا لم يكن شركاً، فما الفرق بين الاستغاثة بنبيٍّ حيٍّ أو بروحه بعد

وفاته؟ ما الفرق بين طلب العون من طبيب جراح لإزالة الزائدة الدودية، مثلاً، والإستغاثة بمجربئيل؟

يقولون: هذه شرك وذاك ليس شركاً، لأن الأرواح لا تُرى ولا تتصور، أي إن طلب العون من الأسباب الطبيعية والمادية ليس شركاً، ولكن طلب العون من الأمور المعنوية والروحانية شرك؟ الاستعانة بالمادة القذرة ليس شركاً، ولكن الاستعانة بالنفوس العالية المجردة القدسية شرك!

ونقول: القاعدة العقلية لا استثناء فيها. فإذا كان طلب العون من غير الله شركاً، فهو شرك في كل مكان، وخطأ في كل مكان. فكيف تريدون إثبات التوحيد بالدليل العقلي، ثم تستثنون في الأمور المادية والطبيعية؟ أليس هذا مضحكاً؟ أم إنه مما يبكي أن تكونوا بهذا القدر من الضحالة والفقر في المعرفة والعرفان بالله؟

يقولون: الطواف حول قبر المعصوم شرك، وتقبيل الضريح المطهر شرك، وتقبيل الأعتاب شرك، والسجود على تربة سيد الشهداء (ع) شرك، وجعل الأئمة والصديقة الزهراء واسطة لقضاء الحاجات شرك.

فنقول: لماذا شرك؟ ما الفرق بين تقبيل الحجر الأسود وتقبيل الضريح؟ ما الفرق بين بيت يبنيه إبراهيم (ع) بسم الكعبة، والمرقد المطهر للآية الإلهية الكبرى، ومن علا مقامه حتى كان «قاب قوسين أو أدنى» وصاحب الشفاعة الكبرى، وحامل لواء الحمد؟ لماذا يكون الطواف هناك جائز، ولا يكون هنا جائزاً، على الرغم مما فيه من مزايا^{١٠١}؟ لماذا يجوز السجود على الأرض

١٠١ - في عدم جواز الطواف حول القبور يستدل بعضهم برواية الحلبي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، ورواية محمد بن مسلم عنه أو عن الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، أنه قال: «لا تطف بقبر».

وهذا لا يعني الطواف، بل المراد به «الطوف» في هذا الحديث، وهو «التغوط» لا «الطواف» والدوران حول القبر. أي لا تتغوط عند القبور! والشاهد على ذلك هو أقوال أئمة اللغة، كما في «صحاح اللغة» و«تاج العروس» و«لسان العرب» وغيرها. وقد جاء في «شرح القاموس» في مادة «طوف» الطوف: الغائط، وطاف: تغوط، واطاف من باب افتعال.

والتراب وكل شيء، ولا يجوز على التربة الطاهرة للشهيد الوحيد الذي استشهد في سبيل الشرع والشرعة والحق والحقيقة، أبي عبد الله الحسين (ع)؟ فإذا كان السجود على شيء شركاً، فكيف يجوز على الفرش والبساط والأرض والحصى، ولكنه على تربة الحسين (ع) حرام؟ لماذا يكون هناك توحيداً، ويكون هنا شركاً؟ إنكم عندما تطلبون العون من الإنسان الحيّ إنّما تطلبونه من روحه لا من جسمه! فلماذا لا يكون طلب العون من النفوس الخبيثة الكافرة في الدنيا شركاً، ولكن طلبه من روح الزهراء الطاهرة شرك؟

هذه أسئلة لا يستطيع الوهابيون الإجابة عنها، وهم لم يستطيعوا، ولن يستطيعوا.

ولكن الجواب هو: إذا كان طلب العون بصفة الاستقلال، فكله شرك : الطواف ببیت الله، وتقبيل الحجر الأسود، والسجود على الفرش والأرض العاديين، وكذلك جعل الطبيب والجراح والعالم المتخصص وسطاء. ولكن طلب العون من هؤلاء، بوصفهم غير مستقلين، ليس شركاً، بل هو التوحيد بعينه. أليس النظر إلى كائنات هذا العالم، باعتبارها مستقلة، شركاً؟ إذن، هؤلاء الوهابيون بهذا التنزيه والتقديس اللذين يبدونها لله تعالى، قد ألقوا بأنفسهم، دون وعي وإدراك، في أحضان الشرك، وأصبحوا ممّن يعبدون الله على حرف، أي إنهم ينظرون إلى الله من نافذة واحدة فقط، ويرون قدرته وعظمته في بعض الأشياء، لا في جميع الأشياء وفي كل مكان.

إن النظر إلى الآية، من حيث كونها آية، هو النظر إلى التوحيد ذاته. وتقبيل الإمام من حيث كونه إماماً هو التبجيل عينه لله. وعرض الحاجات على الأرواح المقدسة، من حيث المعنوية والروحية والقرب من الله، يعتبر عرضاً لتلك

→ وفي «مجمع البحرين»: «... والطوف: الغائط، ومنه الخبز: «لا تَبُلْ في ماء مستنقع ولا تطف بقب».

وعليه، فليس ثمة من شك في أن الطواف حول القبور لا حرمة فيه، إذ إن المقصود في هذه الأحاديث هو التوقف لا الطواف (راجع «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير).

الحاجات على الله، وهو التوحيد عينه. إن حبَّ أحباء الله هو حبُّ الله.

هذا بالدليل العقلي، وأما من حيث الدليل النقلى، فنقول: كثير من الآيات والأحاديث تؤكد أن الكائنات وسائط في الإيجاد والوجود، وأن الخلق يتم بالسببية. فالغاء الواسطة في عالم التكوين، فضلاً عن كونه إنكاراً لأمر وجداني، فإنه كذلك إنكار للمنقولات الشرعية من الكتاب والسنة. ألا نقرأ في كتاب الله: «... والمدبرات أمراً...» و «... وأرسلنا الرياح لواقح...»^{١٠٢} فيما بين الأشجار لينتج الثمر و «... والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها كذلك النشور»^{١٠٣} و «وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء»^{١٠٤}

وهكذا نجد هذه الآيات تقول بأن الأمور من تدبير الملائكة، والمطر من تحرك السحاب إلى حيث الجفاف، والثمار من تلقيح الأشجار بواسطة الرياح، وخروج النباتات من سقوط الأمطار من السماء. كما أن هناك آيات كثيرة أخرى صريحة في القول بأن هذه أيضاً هي أسباب حصول التكوينات.

فكيف يجوز لنا أن ننكر السببية في الوقت الذي تؤكد فيه هذه الآيات ذلك؟ إذن، فإنكار السببية في عالم الوجود مستحيل بالأدلة العقلية والأدلة النقلية، إن العالم عالم العلّة والمعلول، فكل شيء يأتي إلى الوجود عن طريق علّته الخاصة، فإنكار العلّة والسبب والواسطة يعني إنكار قانون العلّية، وإنكار قانون العلّية في العالم يعني إنكار البديهي، ولا ينكر البديهي إلا المريض أو السفیه أو المفرض أو المجنون!

ولكن لابدّ من القول بأن جميع هذه الأسباب إنما هي تأتمر بأمر الله ولا تملك أي استقلال ذاتي، وكلُّ منها جندي من جنود الرحمن: «الله جنود السموات والأرض». (الفتح: ٤) وما نقوله نحن أيضاً بشأن هذه الأسباب وكل

١٠٢ - «الحجر: ٢٢».

١٠٣ - «فاطر: ٩».

١٠٤ - «الأنعام: ٩٩».

الأسباب الأخرى، مادية كانت أم معنوية، هو أن هذه الأسباب ليس لها استقلال بذواتها، بل هي شفيعة وشافعة وواسطة أخذ الفيض من الله وإفاضته على العالم.

يقولون: إن الاستعانة بأرواح الأنبياء والأئمة (ع) يعني الاستعانة بأرواح الاموات، وهذا ضرب من التوجه إلى الأموات وعبادة الأصنام، لأن الإنسان يستعين بشيء ميت ليس له أثر عيني خارجي، فيجعله شفيعاً له عند الله، لذلك لا فرق بين الاستعانة بصنم والاستعانة بشيء لا أثر له.

فنقول: تنص آيات من القرآن والبراهين العقلية على أن روح الإنسان لا تموت بعد موته، بل هي حيّة ولا يمكن أن تنعدم انعداماً تاماً بحسب نظرية «تجرد النفس». والموت عبارة عن الانتقال من الدنيا إلى الآخرة. ثم ألم يقل القرآن في الشهداء:

«ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» ١٠٥؟

يقولون: إن هذه الآية جاءت بشأن الشهداء، شهداء غزوة أحد، مثل حمزة وغيره.

الجواب: ألم يكن حمزة وغيره من الشهداء يتبعون نبوة رسول الله (ص)؟ فهل مقام حمزة أرفع من مقام رسول الله بحيث يكون هويّاً ويكون رسول الله ميتاً بعد وفاته؟

كلا، ليس الأمر كذلك، بل إن رسول الله هو شهيد الشهداء، والموكل بأرواح الأنبياء. إننا في صلواتنا اليومية نسلّم على النبي: «السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته». أيكون مخاطبنا ميتاً ولا يستطيع أن يسمع كلامنا هذا. [١٠٦ التوسل

من الأمور التي يثير الوهابيون الكثير من الضجة حولها هو قولهم بالتناقض

١٠٥ — «آل عمران: ١٦٩».

١٠٦ — «إمام شناسي» تأليف السيد محمد حسين الطهراني، ج ٥ ص ١٤٢ بتصرف.

بين فكرة التوسل ومبدأ التوحيد، فهم يثنون الكثير من سمومهم في كتبهم ضد الشيعة، قائلين إن الشيعة ماداموا يؤمنون بالتوسل فهم مشركون، وخارجون عن الدين وتوحيدهم ليس توحيداً! إنهم، بنظرهم القاصرة، يظنون أن التوسل يتناقض مع الاعتقاد بالتوحيد. وهذا، بالطبع، انحراف آخر من الانحرافات الفكرية عند هذه الفرقة الاستعمارية، وآلا فإن كل أمرئ بصير وعارف بالقرآن وبأحاديث الشيعة والسنة يعلم أن التوسل فضلاً عن كونه لا يناقض التوحيد فإنه الطريق الوحيد إلى أساس التوحيد، والذي دعا إليه القرآن «دعوة ارشادية». وإننا لكي نبرهن على بطلان مزاعم الوهابيين الكاذبة لابد لنا من أن نتناول بالبحث موضوع التوسل ليتبين الحق من الباطل، والصدق من الكذب.

التوسل لغويا

«توسل»: اتخذ «وسيلة» ليتقرب بها من شيء. وتوسل إليه بوسيلة: إذا تقرب إليه بعمل. وتوسل إلى الله بعمل. عمل عملاً تقرب به إليه تعالى. و«الوسيلة» لها معانٍ متعددة، منها:

- ١ — التقرب.
- ٢ — الخطوة عند السلطان.
- ٣ — المنزلة والمكانة.
- ٤ — سبب للوصول الى مبتغى مرغوب فيه.
- ٥ — كل ما يجعل الاقتراب من شيء آخر ممكناً. ١٠٧

التوسل في الفطرة

«لا شك في أن الإنسان، من أجل الحصول على الكمالات التي يريدها، سواء أكانت مادية أم معنوية، يحتاج إلى «غيره»، أي إنه يحتاج إلى شيء خارج وجوده.

آلاف الكائنات من جماد ونبات وحيوان وإنسان وأرض وساء يجب أن

١٠٧ — «توسل» ص ٢٧.

تتظافر حتى يستطيع الإنسان، تحت أشعة هذه الكائنات وخصائصها وآثارها الوجودية، أن يسدّ جانباً مما يجده من نقص، ولينال بعض كمالاته المادية أو المعنوية.

هذا يصح بالنسبة لسائر الكائنات، أي إن كلاً منها، لكي يحصل على كمالاته النوعية، لابدّ له من أن يستعين بكائنات أخرى خارجة عنه، للاستفادة من كل ما يحدث في أرجاء العالم من فعل وانفعال وتأثير وتأثر، وظواهر متنوعة.

هذا هو قانون «التوسل» وهو حقيقة تكوينية ونظام ثابت طبيعي في عالم الخلق، وهو يجري على الإنسان وبادٍ للعيان، وما من إنسان عاقل، مادياً كان أم إلهياً، يشك في سريان هذا القانون الحتمي في نظام عالم الوجود، أو ينكر الخصائص المؤثرة في الكائنات. إننا جميعاً نعلم أن الإنسان العطشان يرتوي بشربة ماء بارد، والبردان يزول برده بالتدفئة، والدواء يؤثر في تحسين حال المريض، والسم يعرّض حياة السليم إلى الخطر، والجاهل بالتعلّم يصبح عالماً، والفقير يغتنى بإحسان المحسنين، وفي الربيع ينزل المطر، فيمنح الأرض طاقة، فتخرج نباتاتها متنوعة، ويتغذى الحيوان على النبات، ثم يكون سبب بقاء الإنسان وإدامة حياته. وهكذا كل سلسلة الكائنات، تؤثر في غيرها وتتأثر بغيرها. غير أن الإنسان ذا النظرة المادية يحسب أن كل هذه الخصائص والآثار الموجودة في الكائنات قد وُجدت بصورة عمياء، وأنها من خصائص تركيب المادة نفسها ومعلولة طبيعتها الذاتية.

ولكن الإنسان الإلهي المذهب يجزّ البحث إلى طبائع الأشياء وتراكيب الأجسام الخاصة، ويرى أنها قائمة على نظام وحساب دقيق ظاهر فيها، ويستند إلى الإرادة الحكيمة لمبدئ عليم وحكيم.

وعليه، فإن النظام الموجود في العالم والقانون الحاكم فيه؛ هو نظام «التوسل» وقانون «التسبب». أي إن الوصول إلى أي كمال وأي هدف يكون، بحكم الطبيعة، مرهوناً باتخاذ «وسيلة» ومنوطاً بالسبب. ١٠٨.

١٠٨ — المصدر نفسه، ص ٢٨.

التوسل في القرآن

«ولهذا، فإن القرآن الذي نزل منسجماً وفطرة الانسان، يرى «التوسل» طريقاً واضحاً ومسلماً به للوصول إلى الهدف والتوحيد. لذلك فإن إنكار مبدأ «التوسل» يعتبر في الواقع إنكاراً لأحد الأصول المعروفة في عالم الطبيعة، وتجاهلاً لقانون من القوانين الفطرية المعترف بها.

إن «القرب من الله» هو أكمل شرف وأشرف كمال يمكن أن يبلغه الانسان في مسيرة عبوديته وعبادته. لذلك يقول القرآن:

«يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون»^{١٠٩}

وفي موضع آخر يقول:

«قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً». (الاسراء: ٥٦/٥٧).

هذه الآية الشريفة تدل على أن كل ما سوى الله، من ملائكة وأنبياء وسائر طبقات المخلوقات وأصنافهم تبتغي إلى الله الوسيلة لاكتساب بركات الله وفيوضاته، جل شأنه (إرادياً أولاً وإرادياً)، واستجلاب رحمته ودفع عذابه «يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب».

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله:

«إسألوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا ينالها إلا عبدٌ واحدٌ أرجو أن أكون أنا هو»^{١١٠}.

كما نقل عنه صلى الله عليه وآله أنه عند سماع الأذان كان يقول:

١٠٩ - «المائدة: ٣٥».

١١٠ - صحيح مسلم، ص ٤٢، وتفسير «جمع البيان» ذيل الآية ٣٥ من سورة المائدة مع بعض الاختلاف في العبارة.

«... آت محمداً الوسيلة»^{١١١}

والإمام علي عليه السلام كان يدعو للرسول الكريم إلى الله ويقول:

«وشرف عندك منزلته وآته الوسيلة...»^{١١٢}

إذن، فكل الكائنات، بما فيهم أشرفها، رسول الله نفسه، يبتغون «الوسيلة» للتقرب إلى الله، على الرغم من أن وسيلة النبي تختلف كثيراً عن سائر الوسائل، وإدراكها فوق طاقتنا.

وإذا كان جميع الكائنات بذواتها تمديد السؤال إلى خارج وجوداتها «يبتغون إلى ربهم الوسيلة» للتقرب إلى الله، فليس لأي من مخلوقات عالم الإمكان الجدارة لكي يكون معبوداً، ولا أن يكون بذاته قادراً على دفع البلاء وإفاضة الرحمة، وذلك لأن المعبودية والاستقلال وإفاضة الرحمة هي، بحكم العقل، من شؤون «القائم بذاته» ومن خصائصه واستقلالته وقدرته، وهو الله جل شأنه.

أما سائر المخلوقات، الفاقدة للوجود ولجميع الكمالات بذواتها، فعليها أن «تبتغي الوسيلة» إلى مبدأ الوجود ومصدر كل كمال للاستفاضة من رحمته «اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة».

و «للسيلة» كما قلنا معان لغوية مختلفة، وأنسبها بحسب الظاهر من سياق الكلام في الآيتين المذكورتين (الآية ٣٥ من سورة المائدة والآية ٥٧ من سورة الإسراء) هو المعنى الخامس، أي: كل ما يجعل الاقتراب من شيء آخر ممكناً، وخاصة في الآية الأولى، حيث نرى بعد الأمر بابتغاء الوسيلة جاء الأمر بالجهاد في سبيل الله، ثم اعتبار نتيجة «التقوى» و «ابتغاء الوسيلة» و «الجهاد» هي «الفلاح»، بقوله: «لعلكم تفلحون».

بديهي أن الفلاح هو بلوغ مقام «القرب» من الله، وبحكم لزوم التغاير بين «المقدمة» و «النتيجة» يجب أن تكون «الوسيلة» غير «القرب»، أي إن «الوسيلة» يجب أن تكون شيئاً يتسبب في نيل الإنسان «القرب» و «الدرجة» و

١١١ - المصدر نفسه.

١١٢ - «نهج البلاغة» ط ١٠٤.

«المنزلة»، أي «الفلاح».

وكذلك الأمر «بالجهاد» الذي جاء بعد الأمر بابتغاء الوسيلة، فالظاهر من الآية أن الجهاد (سواء أكان بمعنى القتال ضد الكفار أم مطلق السعي في سبيل الله) يعتبر من أهم مصاديق «ابتغاء الوسيلة»، ولما كان من البديهي أن «الجهاد» نفسه لا يعني تحقق «القرب» الخارجي والعيني، بل هو سبب ومقدمة «للقرب»، فإن معنى «الوسيلة» في هذه الآية ليس «الدرجة» ولا «المنزلة» ولا «السبب»، لذلك فالمعنى الصحيح والمناسب «للووسيلة» في تلك الآية هو المعنى الخامس الذي ذكرناه.

ثم لما كانت كلمة «الوسيلة» قد جاءت «مطلقة» في الآية المباركة من دون أيّ تحديد، وإن كانت لها معان كثيرة وواسعة وحرّة، فهذا «الإطلاق» غير المقيد يجعل الكلمة تشمل كل اعتقاد، وكل عمل، وكل شيء وكل شخص له بشكل من الاشكال صلاحية «التقريب» إلى أعتاب الخالق العظيم، مثل: الايمان بوحداية الله، وبرسالة الأنبياء، وبيوم الجزاء، وكذلك اتباع رسول الله (ص) وأداء الفرائض والعبادات كالصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد وإرشاد الجهلة، وصلة الرحم، وعيادة المرضى وأمثال ذلك من الأعمال الصالحة التي تعتبر كلها «وسائل» للقرب من الله.

يقول أمير المؤمنين علي (ع): «إن أفضل ما توصل به المتوسلون إلى الله سبحانه: الإيمان برسوله والجهاد في سبيله... وكلمة الاخلاص... وإقام الصلاة... وإيتاء الزكاة... وصوم شهر رمضان... وحج البيت واعتماره، وصلة الرحم... وصدقة السر... وصدقة العلانية... وصنائع المعروف...»^{١١٣}.

كذلك هم الأنبياء والأولياء والمقربون إلى أعتاب الله ومعرفتهم، ومحبتهم، ودعائهم، وشفاعتهم، والتقرب إلى أولئك العظام، واحترام مقاماتهم، وزيارة مراقدهم المطهرة وقبورهم الشريفة، ممّا هي من المصاديق الحقّة لتعظيم شعائر الله،

١١٣ - المصدر نفسه، ص ١١٠.

وأدلة بارزة على المحبة والمودة والتعلق بعباد الله المخلصين، وإظهار آيات التكرم والتبجيل للهداة إلى طريق الله. لا شك أن كل هذه تدخل ضمن نقطة «الوسيلة» بمعناها المطلق الواسع. أي إن هذه اللفظة تصدق على كل هذه الأشياء التي تعتبر مما يتقرب به إلى الله ونيل مرضاته.

وبناءً على ذلك، فليس ثمة ما يدعو إلى تجاهل المعنى المطلق في لفظة «الوسيلة» في الآية المذكورة، ونقصر معناها على مفهوم أو مفهومين خاصين، كما فعل ابن تيمية ويفعل أتباعه من الوهابيين الذين قيّدوا معنى «الوسيلة» دون دليل مقبول، بمفهومين فقط:

١ — الإيمان برسول الله (ص) وأتباع سنته.

٢ — دعاء الرسول الكريم (ص) وشفاعته في حياته الدنيوية، وفي يوم القيامة.

وقد يفسرونها بمعنى الفرائض الواجبة والمستحبات.

ولكن بالإضافة إلى أن الآية الشريفة «مطلقة» وغير مقيدة، فإن هناك في كتب الحديث المروية عن طرق الشيعة وطرق أهل السنة، أحاديث كثيرة حول «التوسل» تؤكد بكل وضوح المعنى المطلق الواسع العام الشامل لتلك الكلمة، وتؤيد، في التقرب إلى الله ونيل البركات من المنبع الفياض جلّ وعلا، الاستغاثة والاستعانة بالصالحين والمقربين عند الله، بأيّ شكل من الأشكال وأيّ حال من الأحوال»^{١١٤}. ولكننا تجنباً للإطالة لا نتطرق إليها، وعلى الراغبين الرجوع إلى كتب الحديث والسيرة والتاريخ عند أهل السنة، مثل كتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسهمودي.

الشفاعة

من القضايا الأخرى التي يثير الوهابيون الغبار حولها ويوجهون الاتهامات بسببها إلى الشيعة هي قضية الشفاعة التي كثر الكلام حولها بظهور المذهب

١١٤ — «التوسل» ص ٣٠.

الوهابي. يقول هؤلاء إن الاعتقاد بشفاعة الأولياء والصالحين يتناقض مع التوحيد، وهو، لذلك، شرك، ولإثبات هذا الزعم يشكلون بعض الإشكالات، ويستشهدون ببعض الآيات. إننا بهذا الشأن سنورد البحث المسهب الذي كتبه الاستاذ الشهيد العلامة مرتضى المطهري (رضوان الله عليه) في كتابه القيم (العدل الإلهي)، والذي نعتقد أنه بحث يقتلع من الجذور كل شبهة ويرد كل إشكال ويقضي على كل اتهام، ولسوف يتفهم القراء الكرام المهتمون بالبحوث العقائدية صدق المنظور الشيعي بالنسبة للشفاعة، ويدركون كيف أن الذين ابتعدوا عن علوم أهل البيت (ع) ومعارفهم، ووقعوا ضحايا أهوائهم النفسية، قد ضاعوا في متاهات الاعتقادات الفاسدة والأفكار الواهية والأوهام المتخيلة.

يبدأ الاستاذ الشهيد المطهري بتعداد الانتقادات الموجهة إلى قضية الشفاعة، أو التي يمكن أن توجه إليها، ثم يباشر بتفنيدها والرد عليها، في بيان شاف وواف، كما يلي، فيقول:

من المواضيع التي لا بد من طرحها وتحقيقها هو موضوع «الشفاعة». لقد جرت في هذا الموضوع مناقشات حامية، ولا سيما بعد ظهور المذهب الوهابي الذي رُوِّج لها.

وهذا المذهب الذي ينسب إلى محمد بن عبد الوهاب، وهو المذهب الرسمي لحكومة آل سعود، مذهب سطحي جداً ويعلن التوحيد في العبادة فقط، ولهذا فهو ينكر كثيراً من المعارف الإسلامية الدقيقة السامية. والتوحيد الوهابي، مثل توحيد الأشاعرة، يخالف الكثير من الأصول الإسلامية.

اعتراضات وشبهات

إن الاعتراضات والشبهات التي أُثيرت أو قد تثار حول «الشفاعة» يمكن أن تلخص في الأمور التالية:

١ - الشفاعة تتعارض والتوحيد في العبادة، والاعتقاد بها ضرب من ضروب الشرك.

هذا الاعتراض لا يوجهه الوهابيون وحدهم، بل يشاركهم في طرحه بعض

الشيعية المخدوعين بالوهابية.

٢ — الشفاعة، إضافة إلى كونها تتعارض والتوحيد في العبادة، فإنها تتعارض كذلك مع التوحيد في الذات ايضاً، وذلك لأن الاعتقاد بالشفاعة يعني أن رحمة الشفيـع ورأفته أوسع من رحمة الله ورأفته، باعتبار أن الله كان سيعاقب المستشفع لولا الشفاعة.

٣ — الاعتقاد بالشفاعة يجزئ النفوس الراغبة في الذنب، بل إنها تشجعهم على ارتكاب الذنوب.

٤ — لقد أبطل القرآن الكريم الشفاعة ورفضها، فهو يصف يوم القيامة بقوله: «واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس ولا تُقبل منها شفاعـة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم يُنصرون»^{١١٥}

٥ — الشفاعة تتناقض مع مبدأ قرآني يجعل سعادة كل امرئ مرهونة بعمله فقط: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى»^{١١٦}.

٦ — لو صحت الشفاعة للزم الاعتقاد بأن الله يقع تحت تأثير الشفيـع الذي يحيل غضبه إلى رضا، مع أن الله منزّه عن الانفعالات وعن تبدل حالاته، ولا يؤثر فيه أي عامل، إذ التغير يناقض الوجود الذاتي لله سبحانه.

٧ — الشفاعة تعني قبول الاستثناء والمحابة واللاعـدالة، مع أن النظام الإلهي لا يقبل اللـاعـدالة. وبعبارة أخرى، تكون الشفاعة استثناءً من قانون الله. بينما شريعة الله كلية لا استثناء فيها ولا تغيير «ولن تجد لسنة الله تبديلاً».

وهذا الاعتراض يربط بحث الشفاعة بالعدل الإلهي، ممّا يدخله ضمن مباحث هذا الكتاب — العدل الإلهي — وعليه فيمكن صياغة الاعتراض على الشكل التالي: لا شك أن الشفاعة لا تشمل جميع المذنبين، إذ في هذه الحالة يفقد القانون معناه، كما لا يكون للشفاعة معنى، إذ إن الشفاعة تلازم المحابة والاستثناء. ومن هنا يرد الاعتراض: كيف يصح تقسيم المذنبين إلى فئتين، فئة

١١٥ — «البقرة: ٤٨».

١١٦ — «النجم: ٣٩».

تنجو من العقاب بالواسطة، وفئة يحق عليها العقاب لأنها من دون واسطة؟
إننا نلاحظ في المجتمعات البشرية أن انتشار ظاهرة الوساطة يعتبر دليلاً
على فساد ذلك المجتمع وانحطاطه وتفشي الظلم فيه، فكيف يمكن الاعتقاد
بقبول الله الوساطة، مع العلم أنه حيثما تكون وساطة لا تكون عدالة؟

ضعف القانون

في المجتمع الذي يكون فيه تأثير لعوامل «المال» و «الواسطة» و «القوة»
يكون القانون متسماً بالضعف.

وعندما يكون القانون ضعيفاً فهو لا يطبق بحق الأقوياء والأثرياء، بل
يقتصر تطبيقه على الضعفاء.

القانون الضعيف يصطاد المجرمين الضعفاء ويقدمهم للعدالة لينالوا
جزاءهم، ولكنه عاجز عن اصطياد الأقوياء من المجرمين.

والقرآن الكريم يصف القوانين الإلهية بالقوة والمنعة، ويرفض تأثير
«المال» و «الواسطة» و «القوة» في محكمة العدل الإلهي.

ويعبر القرآن عن المال بـ «العدل» (من العدول عن الحق، فعندما يعطى
المال كرشوة فإنه يؤدي إلى العدول والانحراف عن الحق) أو «العدل» بمعنى
«المعادل». ويستعمل القرآن «الشفاعة» بمعنى «الواسطة» و «النصرة» بمعنى
«القوة» في الآية ٤٨ من سورة البقرة:

«واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها شفاعَةٌ ولا يؤخذ
منها عدلٌ ولا هم يُنصرون».

أي إن النظام في العالم الآخر لا يشبه النظام الاجتماعي البشري في هذه
الدنيا، حيث يتهرب الإنسان أحياناً من القانون متوسلاً بالمال، أو بالواسطة، أو
بالقوم والعشيرة، فتقوم هذه الوسائل بإعمال نفوذها للحيلولة دون قيام منفذي
القانون بتنفيذه. كان القانون في صدد الاسلام قوياً في المجتمع الاسلامي بحيث كان
يطبق حتى على أقارب الحاكم وبناته. «فعندما نمي إلى علي بن أبي طالب (ع)
أن ابنته قد استعارت بضمان قلادة من بيت المال تتزين بها أيام العيد، لامها أشد

اللوم وعنفها بقسوة قاتلاً: لو لم تأخذها عارية مضمونة لقطعت يدك — أي لنفذت فيك حد السارق»^{١١٧}.

كما إنه كتب الى ابن عباس، ابن عمه ومن اصحابه، يعتقه على أمر كان قد بدر منه، ويقول فيما يقول: «... فاتق الله وأردد إلى هؤلاء القوم أموالهم فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك. لأعذرنَّ إلى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلّا دخل النار...».

أي إنك تعلم أن سيفي لا ينزل إلّا على من كان من أهل النار، وإن عملك هذا قد جعلك من أهل النار ومستحقاً لضربة سيفي.

ولكي يؤكد أن عدالته لا تستثني أحداً، يقول: «... والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت لما كانت لهما عندي هودة...»^{١١٨}.

ذلكم هو صدر الاسلام، وهذا هو منفذ قانون الاسلام، الامام علي بن أبي طالب (ع).

وإذا شئت أن تحيطوا علماً بالمدى الذي وصل إليه الجهاز التنفيذي الذي أنشأه رسول الله صلى الله عليه وآله، فإليكم هذه الحكاية:

عَيَّن عمر بن الخطاب عمرو بن العاص عاملاً له على مصر. ومرة صفع ابن عمرو رجلاً، فشكاه الرجل الى عمرو، فلم يُلَقِ إليه بالاً، فرحل الشاكي الى المدينة يعرض شكواه على عمر بن الخطاب، فأمر عمر باستدعاء عمرو بن العاص وابنه وقضى بينهما، وقال قولته المشهورة مخاطبهما:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً؟»
ثم أصدر حكمه.

وسار عمر بن الخطاب وفق هذه السيرة نفسها مع ابنه هو. فعندما ثبت عنده أن ابنه شرب الخمر أجرى عليه الحد الالهي.

١١٧ — «بحار الأنوار» ج ٩ ص ٥٠٣.

١١٨ — «نهج البلاغة» الرسالة ٤١.

هذه هي العدالة التي علّمها رسول الله صلى الله عليه وآله للمسلمين، ولم يكن المسلمون قد نسوها بعد، والعجلة التي أدارها بيده كانت ماتزال تدور.
أنواع الشفاعة

إن للشفاعة، في الواقع، أنواعاً، منها ما هو محجف وظالم، وهذا لا وجود له في العدل الإلهي، ومنها ما هو سليم وعادل وهو إلهي.

الشفاعة المحجفة هي التي تخرق القانون وتتعارض معه. أمّا الشفاعة السليمة فهي التي لا تخرج عن القانون بل تحافظ عليه وتؤيده.

الشفاعة الغلط هي أن يحاول شخص ما أن يحول دون تنفيذ القانون عن طريق الوساطة. هذه النظرة إلى الشفاعة ترى أن المجرم يعمل بخلاف ما يريده واضع القانون وبخلاف الهدف المطلوب من القانون، وهو بالتوسل بالوساطة يتغلب على إرادة المقتنّ وهدف القانون. هذا النوع من الشفاعة ظلم في الدنيا، ومستحيل في الآخرة. إن الاعتراضات الموجهة إلى الشفاعة إنما تقصد هذا النوع منها، وهو النوع الذي يرفضه القرآن أيضاً.

أمّا الشفاعة السليمة فهي نوع آخر من الشفاعة ليس فيها استثناء، ولا محاباة، ولا نقض للقوانين، ولا خروج على إرادة المقتنّ. إن القرآن يبيّن بصرحة أنه يؤيد هذا النوع من الشفاعة، التي لها بدورها أنواع سوف نبادر إلى شرحها.

نقض القانون

الشفاعة التي ترفضها الأدلة العقلية والنقلية هي التي يسعى فيها المجرم إلى اختراق الحكم الإلهي والحيولة دون تطبيقه، كما يحدث في المجتمعات البشرية من التلاعب بالقانون وإيقاف عمله بالوساطات.

يظن كثير من عامة الناس أن شفاعة النبي والأئمة إنما هي من هذا النوع. إنهم يظنون أن النبي (ص) والامام علياً وفاطمة الزهراء وسائر الأئمة الأطهار (ع) لهم نفوذ على الساحة الإلهية يستطيعون به تغيير إرادة الله ونقض قوانينه.

كان العرب في الجاهلية يحملون هذا التصور نفسه عن الاصنام التي اعتبروها شريكة لله، بقولهم إن الخلق منحصر بالله سبحانه ولا شريك له في

ذلك : إلاً أن الاصنام تشاركه في إدارة الكون. فشرك الجاهلية على هذا، ليس في «الخالفية» بل في «الربوبية».

على الصعيد البشري، نرى أن شخصاً ما يؤسس مؤسسة ويعهد بإدارتها إلى شخص آخر، أو يشترك مع لجنة تتولى إدارتها، وهذا أشبه بتصور المشركين في الله بالنسبة لإدارة الكون. وقد شنَّ القرآن حرباً شعواء على هؤلاء المشركين، مكرِّراً القول بأن ليس لله شريك لا في الخالقية ولا في الربوبية، وأنه هو وحده الذي خلق الكون، وهو الذي يديره، فهو ملك الناس وهو ربُّ العالمين.

فالمشركون الذين كانوا يظنون أن ربوبية الكون مقسمة بين الله وغيره؛ لم يروا ضرورة جلب رضا الله تعالى وحبّه، بل قالوا: إننا بالقرابين والأدعية والطقوس التي نتوجه بها إلى الأصنام يمكن أن نجلب رضا الارباب الآخرين ونكسب حبّهم، حتى إذا لم نظفر برضى الله وتأيبده، لأن رضى الآلهة الأخرى يضمن لنا رضى الله بشكل من الأشكال.

فإذا كان بين المسلمين من يعتقد بمثل هذا الاعتقاد، أي يعتقد بوجود سلطة أخرى إلى جانب قدرة الله وفي مقابلها، فإن ذلك شرك لا شبهة فيه.

وإذا ظن أحد أن نيل رضى الله تعالى والقرب منه له طريق، ورضى الإمام الحسين (ع) له طريق آخر، وأن كلّ واحد منهما يستطيع، مستقلاً عن الآخر، أن يضمن سعادة الإنسان، فهو لاشك في ضلال مبین.

هذا الظن الخاطئ يذهب إلى أن نيل رضى الله سبحانه وتعالى يتم بفعل أشياء خاصة، وأن نيل رضى الامام الحسين (ع) يتم بفعل أشياء أخرى غيرها، كأن يتم رضى الله بأداء الفرائض كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة والصدق والتقوى وخدمة الناس والبر بالوالدين وأمثالها، وترك المحرمات كالكذب والظلم والغيبة وشرب الخمر والزنا. أما الإمام للحسين (ع) فإنه لا يهتم بهذه الأمور وإنما يتم إحراز رضاه بالبكاء عليه، مثلاً، أو بالتباكي على ولده الشاب علي الأكبر. أي إن اهتمامات الحسين غير اهتمامات الله سبحانه. ثم يستنتج صاحب هذا الظن أن رضى الله صعب المنال للغاية ولا يتم إلا بالقيام

بأعمال عديدة وعسيرة، أما رضى الحسين (ع) فيتم بكل يسر وسهولة، بالبكاء والطم، فإذا فزنا برضى الحسين فإنه سوف يشفع لنا عند الله بما له من نفوذ وحظوة عنده، ويصني الجوامع المتعكريننا وبين خالقنا بعد تركنا الصلاة والصيام والحج والجهاد والإنفاق في سبيل الله. ومهما كبرت ذنوبنا فإن شفاعة الحسين قادرة على محوها.

هذا التصور للشفاعة ليس باطلا فحسب، وإنما هو شرك في الربوبية وإهانة لشخصية الإمام الحسين (ع) الذي كان هو نفسه يعتز بعبوديته وعبادته لله. فكما كان أبوه (ع) يعوذ بالله من «الغلاة» ويغضب من أقوالهم، كذلك لم يقتل الحسين (ع) لتكون له — والعياذ بالله — ارادة مستقلة في قبال إرادة الله سبحانه، أو تكون له شريعة في مقابل شريعة جدّه (ص) تفتح الطريق أمام المذنبين للهروب من عقاب الله.

إن الحسين لم يستشهد من أجل إضعاف شريعة القرآن، ولا للتقليل من أهمية الفرائض الإسلامية، بل إن الحسين لم يضحّ بنفسه إلا من أجل إعلاء شأن شريعة القرآن والفرائض الإسلامية نفسها. وها هو يبين فلسفة ثورته، فيقول: «... وإني لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر». كما إننا نقول في مخاطبتنا له عند زيارته:

«أشهد أنك قد أمتت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده وعملت بكتابه واتبعت سنن نبيه (ص)...»

حفظ القانون

إذن، كيف تكون الشفاعة الصحيحة؟

الشفاعة الصحيحة والسليمة هي التي تؤيد القانون وتحافظ على النظام. وثمة روايات كثيرة يرويها الشيعة وأهل السنة تؤكد ذلك.

وهذه الشفاعة على نوعين:

١ — شفاعة «القيادة» أو شفاعة «العمل».

٢ — شفاعۃ «المغفرة» أو شفاعۃ «الفضل».

النوع الأول هو الشفاعۃ التي تشمل النجاة من العذاب، ونيل الحسنات، بل وبلوغ الدرجات العليا. والنوع الثاني هو الشفاعۃ التي تؤثر في غفران الذنوب ودرء العذاب، وقد يصل تأثيرها إلى نيل الحسنات والثواب، ولكنها لا ترفع من درجة الإنسان. وهذه هي الشفاعۃ التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إدّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من امتي. أما المحسنون فما عليهم من سبيل»^{١١٩}.

شفاعۃ القيامة

لتوضيح هذا النوع من الشفاعۃ لابدّ لنا من استيعاب ما مضى بيانه عن «العذاب الأخروي» من أن الأعمال التي يرتكبها الإنسان في الحياة الدنيا تتجسد في الحياة الأخرى تجسداً عينياً. ونضيف إلى ذلك هنا أن الأعمال ليست هي وحدها التي تتجسد في الآخرة، بل «العلائق» تتجسد أيضاً تجسداً عينياً. فالعلائق المعنوية بين الناس تتحول إلى صورة مرئية على صعيد الواقع، فعندما يكون الإنسان سبباً في هداية شخص ما، فإن علاقة القائد والقدوة الحسنة التي تحققت بيننا تتحول يوم القيامة إلى صورة عينية يكون فيها الهادي بصورة القدوة والإمام، والمهدي بصورة تابع ومؤتم، وكذلك الحال في التضليل والإغواء. يقول الله في كتابه الكريم:

«يوم ندعو كل أناس بإمامهم»^{١٢٠}.

أي كل شخص يُنشر مع القدوة التي استهدى بها وتبعها في العمل. وبشأن تجسّد فرعون، الذي كان قدوة لقومه، يوم القيامة، يقول:

«يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار»^{١٢١}.

فرعون، الذي كان من الضالين في الدنيا وقدوة لهم، وكان الظالمون من

١١٩ — «مجمع البيان» ج ١ ص ١٠٤.

١٢٠ — «الإسراء: ٧١».

١٢١ — «هود: ٩٨».

قومه يتبعونه خطوة بخطوة، سوف يتجسد في العالم الآخر كإمام وقائد.

إذن، فرعون شفيح وواسطة لقومه في هذه الدنيا وفي الآخرة — شفيح في الدنيا لأنه دفع قومه إلى الضلالة والإثم، وشفيح في الآخرة لأنه سيكون الوسطة لسوقهم إلى النار. فوساطته وشفاعته لدفع قومه نحو الجحيم في الآخرة هي تجسيد لتوسطه في الدنيا لتضليلهم.

والذي يلفت النظر في التعبير القرآني هو قوله إن فرعون «يورد» قومه نار جهنم، وهذا إشارة إلى تجسيد تأثير فرعون في تضليل قومه. فثلاً أوردتهم الضلالة في الدنيا، كذلك يوردهم النار في الآخرة، بل لعل إدخالهم النار في الآخرة هو بعينه تجسيد إدخالهم الضلالة في الدنيا.

وكما أن للهداية إلى الحق والباطل أقساماً وفروعاً في هذه الدنيا، لها كذلك مثل ذلك في الآخرة أيضاً. فثلاً، جميع الأشخاص الذين أشرق عليهم نور محمد (ص) واتبعوا شريعته، سوف يأتون خلفه يوم القيامة، وهو في المقدمة يحمل «لواء الحمد».

وهذا المعنى للشفاعة، يكون الرسول العظيم شفيحاً لعلي بن أبي طالب ولفاطمة الزهراء (ع). وهذان يكونان شفيحين للحسين، وكل إمام يكون شفيح الإمام الآخر وشفيح طلابه وأتباعه، فسلسلة المراتب محفوظة، وكل ما لدى المعصومين فهو بواسطة الرسول الكريم (ص).

وعلى هذا الأساس يصبح العلماء الذين يهدون ويقودون شفعاء لمن يتبعونهم ويستهدون بهم، فتكون سلسلة مترابطة مليئة بالفروع حيث ترتبط الفئات الصغيرة بالفئات الأكبر، حتى تنتهي إلى رأس السلسلة، وهو النبي الأكرم (ص). يقول الشاعر:

قسيم جسم وسيم بسيم شفيح مطاع نبي كريم

*

وقد جاء في رواية عن رسول الله (ص) أنه قال:

«إن القرآن شافع مشفع وماحل مصدق»^{١٢٢}.

فالقرآن شفيع مقبولة شفاعته، وساع ناجح سعيه.

ما أروعه من تعبير!

فالقرآن الكريم شفيع المؤمنين والمحسنين لنيل الجنة والسعادة، وهو خصيم الكافرين والمجرمين ويلقيهم في الجحيم.

والقرآن واسطة لهؤلاء لدخول الجنة واسطة لأولئك لدخول النار. وخليق بمثل هذه الشفاعة أن تدعى «شفاعة القيادة» أو «شفاعة العمل» لأن العامل الأساس الذي يوجب النجاح أو الخيبة إنما هو العمل، صالحاً كان أم طالحاً.

وهكذا يتضح أن الاعتراضات التي وجهت إلى الشفاعة غير ذات موضوع بهذا المعنى الذي شرحناه للشفاعة، وهي شفاعة لا تتناقض إطلاقاً مع العدل الإلهي، بل تؤكد.

شفاعة المغفرة

النوع الثاني من الشفاعة هو الشفاعة في المغفرة، أو غفران الذنوب. وهذه هي الشفاعة التي أثارت عاصفة من الاعتراضات والانتقادات، ولكننا، إن شاء الله، سوف نوضح معناها بما يبين أنها فضلاً عن كونها لا تتقبل أيّ اعتراض، فإنها من المعارف الإسلامية السامية، وأن لها أسساً مكيّنة تنبئ عن عمق المعارف الإسلامية.

جاذبية الرحمة

لابدّ من التنبيه إلى أن نيل السعادة لا يكون عن طريق عمل الانسان فحسب، بل هناك دائماً سبيل آخر في الكون، وهو «رحمة الله السابقة» فقد جاء في النصوص الدينية:

«يا من سبقت رحمته غضبه».

وكذلك جاء في القرآن الكريم:

١٢٢ — «العدل الإلهي» للشهيد مرتضى مطهري، ص ٢٧٢.

«إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون» ١٢٣.

على كل حال فالرحمة والسعادة والخلاص هي التي لها الأصلة في عالم الوجود، والكفر والفسق والشور امورٌ عارضة وغير أصيلة، ولذلك فإن جاذبة الرحمة تعمل دائماً وإلى الحد الممكن على إزالة تلك الأمور العارضة. إن وجود الإمدادات الغيبية والتأييدات الرحمانية كلها شواهد على غلبة رحمته غضبه. أما مغفرة الله ومحو عوارض الذنوب فشهد آخر على أن رأفته ومحبه فوق غضبه.

ولعل السبب في وجود الكثير من الروايات التي مفادها أن الامام الحسين (ع) يشفع لخلق كثير هو أن مدرسة الحسين (ع) عملت على إحياء الدين وهداية الناس أكثر من أي مدرسة أخرى. وقد سبق أن قلنا إن شفاعته الحسين (ع) ليست في أن يطلب من الله شيئاً هو خلاف رضاه وإرادته. إن شفاعته على نوعين: نوع هو هذه الهداية التي هدى بها الناس في هذه الدنيا، فتتجسد في العالم الآخر. والنوع الآخر هو ما سنشرحه فيما يلي:

الإمام الحسين (ع) يشفع للذين اهتدوا بهدى مدرسته، لا الذين أحالوا مدرسته وسيلة للضلال. ولابد هنا أن لا يغرب عن بالنا أنه مثلما اهتدى بالقرآن فريق من الناس، وضل فريق، كذلك اهتدى بمدرسة الحسين (ع) فريق من الناس، وضل فريق آخر، وهذا أمر يعود إلى الناس أنفسهم. يقول القرآن في ذلك:

«يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين» ١٢٤.

والقضية أشبه بالحبل الذي يمكن به النزول إلى قعر البئر، كما يمكن الصعود به من قعر البئر، وللمرء أن يختار بين النزول والصعود. القرآن والمدرسة الحسينية هما الحبل الذي يمكن به الصعود إلى أوج السعادة. الأول جبل من الله، والآخر جبل من الناس، فإذا شاء أحد أن يسيء استعمال هذين الجبلين فلا لوم على الحبل من ذلك، وفي هذه الحالة ينزل أمثال

١٢٣ — «الأنبياء: ١٠١».

١٢٤ — «البقرة: ٢٦».

هؤلاء، وبواسطة القرآن والمدرسة الحسينية، إلى قعر الجحيم، وهذه الحقيقة تتجسد في العالم الآخر بحيث يأمر القرآن والأئمة هؤلاء فيلقون في النار. وهذا معنى: «قسيم الجنة والنار»

مبدأ التطهير

من مظاهر رحمة الله وجود التطهير في نظام الوجود، فلجهاز الخلق خاصية الغسل والتطهير.

ومن مظاهر التطهير هو امتصاص البحار والنباتات غاز ثاني أوكسيد الكربون من الجو لتصفيته. ولولا هذه المصفاة العظيمة لتلوث الجو بهذا الغاز الناتج من تنفس الأحياء ومن احتراق المواد العضوية، ولأصبحت الكرة الأرضية غير صالحة للحياة بسبب اختناق الكائنات الحية.

ومن المظاهر الأخرى للتطهير تحلل الأجسام والمواد العضوية والفضلات التي تطرحها الكائنات الحية، فيعود إلى الطبيعة نقاؤها وصلاحها.

فظاهر التطهير والتصفية التي تعم عالم الطبيعة وتعتبر من قوانين المادة، لها ما يماثلها في عالم المعنويات أيضا. فالمغفرة ومحو آثار الذنوب، تعتبر من قبيل الغسل والتطهير، فالمغفرة هي غسل القلوب والارواح من آثار الذنوب بقدر الإمكان.

هنالك، بالطبع، قلوب أصبحت من المتعذر غسلها وتنظيفها، فلم تعد تستجيب للتطهير، بل إنها قد تحولت الى نجاسة عينية. عندما يحل الكفر والشرك بالله في قلب انسان، فإن ذلك القلب يفقد قابلية التطهير. وفي هذا يقول القرآن الكريم:

«ختم الله على قلوبهم» أو «طبع على قلوبهم». فختم القلب يعني امتناع القلب عن قبول أي مقتحم جديد.

مبدأ السلامة

من الشواهد على أن رحمة الله تغلب غضبه في نظام الكون هو أن الصحة والسلامة هما الأصل دائما في هذا النظام. أما الأمراض فهي عارضة ثانوية. إن في داخل كل كائن طاقة تحفظ سلامته وتحمي وجوده. ودليلنا على ذلك هو وجود

كريات الدم البيض التي لها طاقة دفاعية عظيمه.
والدليل الآخر هو قابلية الترميم والالتئام في الأحياء، فإذا حدث كسر في العظم أو جرح في الجسم، فإن الخلايا الغذائية التي تجري في الجسم سوف تجبر الكسر وتبرئ الجرح. تلك هي فطرة الأجسام. أما الفطرة الدينية، فيقول الحديث:

«كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه»^{١٢٥}.
فإذا انحرف أي موجود عن مسيره الأصلي انبعثت في أعماقه جهود تحاول إعادته الى مسيره الأول. وبتعبير الفلاسفة: إذا تعرضت الطبيعة للقسر، ظهر فيها ميل يعمل على إرجاعها إلى حالتها الطبيعية.
أي إن هنالك في الكون قوة تعمل على إبعاد الكائن عن الانحراف وتوجيهه الوجهة الصحيحة السليمة.
هذه شواهد تؤكد لنا أن رحمة الله تسبق غضبه، وما المغفرة إلا مظهر من مظاهر ذلك.

ليست المغفرة ظاهرة استثنائية، بل هي قانون عام مستنتج من غلبة الرحمة على نظام الكون. ومن هذا يتضح أن المغفرة الإلهية شاملة تستظل بها جميع الكائنات ضمن حدود قابليتها وامكاناتها. ومبدأ الفوز بالسعادة والنجاة من العذاب شامل لكل الناجين، ولهذا يقول تعالى في كتابه المجيد:

«من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه» (الأنعام: ١٦).

وقد أشار رسول الله (ص) إلى ذلك في خطبة خاطب بها المسلمين في أواخر عمره الشريف، مؤكداً أن هناك عاملين اثنين للنجاة: العمل والرحمة، ففي ذلك يقول (ص):

«أيها الناس إنه ليس بين الله وبين أحد نسب ولا أمر يؤتيه به خيراً أو يصرف عنه شراً إلا العمل، ألا لا يدعى مدح ولا يتمنين متمن. والذي بعثني

١٢٥ - «بحار الأنوار» ج ٢ ص ٨٨. طبع كمپاني.

بالحق لا ينجي إلا عمل مع رحمة، ولو عصيتُ هويتُ. أَللّهُم هل بلغت؟» ١٢٦.
 وطلب الرسول الأكرم (ص) وسائر الأنبياء والائمة المعصومين (ع) المغفرة
 من الله، إنما هو رمز لشمول مبدأ المغفرة وكليته. ولهذا قال رسول الله (ص):
 «إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ» ١٢٧.

علاقة المغفرة بالشفاعة

للمغفرة الإلهية قانون ونظام مثل أية رحمة أخرى. وقد فصلنا الكلام عن
 النظام المسيطر على الكون وذكرنا أن اختلاف الكائنات لازمة من لوازم نظام
 الوجود، وقلنا أيضا إن اختلاف الكائنات فيما بينها ليس اعتبارياً ولا مخلوقاً، وإنما
 هو ملازم لذاتها ومحقق لهويتها وصورة وجودها، فعدم الاختلاف هو عدمها نفسها،
 وإذا قلنا بوجودها فلا بد أن نقول بوجود الاختلاف بينها.

ومما قلناه من قبل اتضح أن من غير الممكن سلوك الرحمة سبيلاً لا نظام
 فيه، ولهذا لا بد أن تصل مغفرة الله إلى المخطئين والمذنبين عن طريق أرواح الانبياء
 والأولياء الكبيرة. وهذا أيضا لازمة من لوازم وجود النظام في الكون.
 فما دام الوحي الإلهي لا ينزل إلا بالواسطة، ومادام الله لم يجعل
 جميع الناس أنبياء، ومادامت الرحمة لا تكون إلا بواسطة، لذلك فإن رحمة المغفرة
 لا تتحقق إلا بالواسطة أيضا.

وإذا فرضنا عدم وجود أي دليل نقلي على الشفاعة، لكان علينا أن نثبتها
 عن طريق البراهين العقلية، كما برهنتا على وجود النظام في الكون.
 إن الانسان إذا ما اعترف بوجود المغفرة، فإنه لا بد أن يعترف أيضا بأنها
 لا تتم إلا عن طريق وساطة العقل الكلي أو النفس الكلية، أي ذلك العقل الذي
 يمثل مقام الولاية الإلهية الكلية، فلا يمكن أن يصل الفيض الإلهي إلى الكائنات
 من دون قانون أو نظام.

وإنه لمن حسن الحظ أن يشير القرآن الكريم إلى هذا الموضوع. وإذا ضمنا

١٢٦ — «نهج البلاغة» شرح ابن أبي الحديد، ج ٢ ص ٨٦٣.

١٢٧ — تفسير «الميزان» ج ١٨ ذيل تفسير سورة محمد.

إلى الآيات الشريفة الروايات الصحيحة، وبخاصة ما عند الشيعة في باب الولاية الكلية لرسول الله (ص) والائمة الأطهار (ع) ومراتب الولاية في الطبقات الأدنى من أهل الايمان، استطعنا أن نقول إن وسيلة المغفرة لا تنحصر في الروح الكلية، بل إن لكل النفوس الكلية والجزئية البشرية، على اختلاف مراتبها، نصيباً في الشفاعة. وهذا الموضوع من أهم المعارف الاسلامية والقرآنية التي اختص ببيانها المذهب الشيعي عن طريق الأئمة الأطهار وتلامذتهم، وهو من مفاهيمهم التي تدل عليهم:

شروط الشفاعة

بعد معرفتنا أن «الشفاعة» هي «المغفرة الإلهية»، وأنها عندما تنسب إلى مصدر الخير والرحمة تسمى «المغفرة» وإن نسبت إلى وسائط الرحمة سميت «الشفاعة»، نستطيع أن نقول إن شروط المغفرة هي شروط الشفاعة نفسها. فإذا حرم شخص من رحمة الله فذلك لعدم قابلية الذاتية، لا بسبب عدم سعة رحمة الله — والعياذ بالله — فرحمته لا حدود لها، ولكن القابليات تختلف. وهناك من يكون قد فقد كل قابلية لاستقبال الرحمة من الله. ومن الأمور التي تمنع المغفرة، كما جاء في النصوص الاسلامية، الكفر والشرك بالله. وفي ذلك يقول تعالى:

«إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»^{١٢٨}.

فإذا خلعت النفس من الإيمان انفصلت رابطة الانسان بالمغفرة، وامتنع نيله هذا اللطف العظيم. وإذا ما ختم بخاتم الكفر على قلب انسان، أصبح ذلك القلب كالإناء المغلق من جميع جوانبه، فلو غطسته في جميع محيطات العالم لما نفذت اليه قطرة من الماء. ومثل هذا الشخص مثل الأرض السبخة التي إذا جرى عليها ماء رحمة الله انبثت بدل الزهر شوكا، فالذنب ليس ذنب الماء، بل ذنب الأرض نفسها.

١٢٨ — «النساء: ١١٦».

والقرآن يبين سعة رحمة الله على لسان حاملي العرش، فيقول:
«الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به
ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا
واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم»^{١٢٩}.

ندرك من هذه الآية «لا محدودية» رحمة الله، كما نعرف منها الشرط
الرئيس في جعل المخلوق جديراً بتقبل المغفرة من الله.
يتبين من الآيات القرآنية الشريفة أن الإيمان بالله شرط لازم من شروط
نيل الشفاعة والمغفرة. ولكنّه ليس الشرط الوحيد. غير أن كل الشروط لا يستطيع
أحد أن يعددها متيقناً، لأن الله وحده هو العالم بها.
ففي الآية التي تبشر الناس بالمغفرة، إلّا للمشرك الكافر، نجد شرط «لمن
يشاء». وفي آيات الشفاعة نجد شرطاً آخر:

«ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى»^{١٣٠}، ولكنّ هذين الشرطين يأتيان بمعنى
واحد، لكأن القرآن لم يشأ أن يبين جميع الشروط التي يجب توفرها لحصول
الشفاعة، وذلك ليجعل القلوب بين الخوف والرجاء.
وهكذا يتضح أن من يزعم أن الايمان بالشفاعة يجرئ المذنب ليس لديه
أي سند علمي يدعم به زعمه.

الشفاعة من الله

الفرق الرئيس بين الشفاعة الحقيقية السليمة والشفاعة المنحرفة المرفوضة
هو أن الأولى تبدأ من الله لتصل إلى المذنب، أمّا الثانية فهي عكس ذلك تماماً.
ففي الشفاعة الحقيقية يكون المستشفّع عنده، أي الله، هو المحرك للوسيلة، أي
الشفيع، أمّا في الشفاعة الباطلة فيكون المستشفّع، أي المذنب، هو المحرك للشفيع.
في الشفاعات الباطلة، التي نجد أمثلة لها في الحياة البشرية، يكتسب الشفيع صفته
هذه من المذنب نفسه، لأنه هو الذي استثار الوسيط ليشفع له وجعله وسيلته. ولكن

١٢٩ — «المؤمن: ٧».

١٣٠ — «الأنبياء: ٢٨».

في الشفاعات الصحيحة التي تصح نسبتها إلى الأنبياء والأولياء والمقربين إلى الله للشفاعة، فإن اختيارهم كشفعاء يكون من جانب الله تعالى.

وبعبارة أخرى، في الشفاعة الباطلة يقع الشفيع تحت تأثير المستشفع (المنذب)، والمستشفع عنده يقع تحت تأثير الشفيع، وفي الشفاعة الحققة يكون الأمر بعكس ذلك، أي إن المستشفع عنده (الله) هو العلة المؤثرة في الشفيع، الذي يؤثر في المستشفع له (المنذب) بتأثير من الله وبارادته. فالسلسلة المحركة في الشفاعة الباطلة هي (المنذب) وفي الشفاعة الحققة هي المستشفع عنده (الله).

لصدر المتألهين في تفسير سورة «الحديد» قول جميل علمي في الفصل بين الشفاعتين الباطلة والحققة، وفي بيان أن الشفاعة الباطلة لا توجد إلا في هذه الدنيا، وأن وجودها في العالم الآخر مستحيل.

فهو في معرض بحثه العام، يطرح موضوع العلل الذاتية والعلل التصادفية، والغايات الذاتية والغايات العرضية، ثم يتساءل: كيف تعين العلل التصادفية أحيانا مصير شيء معين، أو تمنع وصوله إلى غايته الذاتية، ولا يصل إلا إلى غايته العرضية، وإن ذلك يحدث في الكون كله، وليس مقصوراً على البشر؟ ثم لماذا يبقى العالم الآخر بعيداً عن تأثير العلل التصادفية والغايات العرضية؟

إن الإجابات عن هذه التساؤلات موجودة في شروح صدر المتألهين في مواضع مختلفة من تفسيره، فليراجعها من يشاء، إذ إن صدر كتابنا هذا لا يتسع لمثل تلك البحوث العميقة المسهبة.

إذن، الآيات القرآنية التي تقول إن لا شفاعة بدون إذن من الله إنها تأخذ هذا الأمر بنظر الاعتبار. وفي القرآن تعبير رائع عن ذلك حيث يقول: «قل لله الشفاعة جميعاً» ١٣١.

هذه الآية تدل دلالة صريحة على صحة الشفاعة وأنها جميعاً لله، وذلك لأنه هو الذي يجعل الشفيع شفيعاً.

وقد تشمل هذه الآية شفاعات يوم القيامة، وقد تشمل وسائط الرحمة على

١٣١ — «الزمر: ٤٤».

الإطلاق. أي إنها ربما تشمل كل قانون «العلّة والمعلول» في العالم. ولكن الذي لاشك فيه بالنسبة للشفاعة الأخروية هو أن المذنب ليس له أن يستفيد من شفاعة الشفيع إلا بإذن الله، وأن الشفيع لا يحرك ساكناً من دون إذن من الله.

أما الدليل العقلي على ما ذكرناه فهو — بإيجاز — أنه قد ثبت في الفلسفة الإلهية أن «واجب الوجود بالذات واجب من جميع الجهات والحيثيات». أي إنه لما لم يكن واجب الوجود بذاته معلولاً لغيره، فإنه كذلك في صفاته وأفعاله لا يمكن أن يكون تحت تأثير أية علة، فهو المؤثر المحض، ولا يتأثر بشيء أبداً.

التوحيد والتوسل

يمكن أن نستخلص ممّا مرّ ملاحظة مهمة تتعلق بالتوحيد في العبادة، وهي أن التوسل وطلب الشفاعة من أولياء الله لا بدّ أن يكون بواسطة من جعله الله وسيلة لذلك. يقول القرآن الكريم:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأبتغوا إليه الوسيلة».

وعلى وجه العموم، إن التوسل بالوسائل والأسباب — مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الله هو الذي خلق السبب وهو الذي جعله سبباً، وهو الذي يريدنا أن نستفيد من هذه الأسباب والوسائل — ليس فيه ما يجعله شركاً إطلاقاتاً، بل هو التوحيد كل التوحيد. ولا فرق هنا بين الأسباب المادية والأسباب المعنوية ولا بين الأسباب الظاهرة والأسباب الخفية، ولا بين الأسباب الدنيوية والأسباب الأخروية. كل ما في الأمر هو أن الأسباب المادية يمكن أن نتعرفها بالتجربة العلمية، والأسباب الخفية المعنوية نعرفها عن طريق الدين، أي عن طريق الوحي، طريق الكتاب والسنة.

ثم عندما يتوسل الانسان، أو يطلب الشفاعة، عليه أن يتوجه إلى الله، وعن طريق الله إلى الوسيلة والشفيع، إذ إن الشفاعة الحقّة — كما قلنا — هي أن يكون المستشفع عنده هو الذي جعل الشفيع شفيعاً، وإنه يتقدم بشفاعته بإذن من الله وبرضاه، بعكس الشفاعة الباطلة التي يكون التوجه فيها إلى الشفيع مباشرة، لكي يذهب ويستعمل نفوذه وحظوته لدى المستشفع عنده ليقتنعه بما يريد المستشفع

له. فإذا كان التوجه إلى الشفيع مباشرة دون التوجه إلى الله، كان ذلك شركاً في العبادة.

إن لفعل الله نظاماً، فإذا أراد أحد أن يتعاضى عن نظام الخلق فإنه ضال. ولهذا يرشد الله المذنبين للذهاب إلى بيت رسول الله (ص) وأن يطلبوا المغفرة من الله مباشرة، وأن يتوسلوا بالرسول كي يطلب المغفرة لهم أيضاً، كما جاء في القرآن الكريم:

«ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» ١٣٢

نعم، لا يمكن الاكتفاء بالتقوى والعمل الصالح فحسب، بل لابد من الرحمة، كما قال رسول الله (ص) في أواخر أيامه:

«والذي بعثني بالحق لا ينجي إلا العمل مع الرحمة».

أجوبة الاعتراضات

استناداً إلى ما قلناه عن شفاعة المغفرة، يمكن تلخيص الإجابات على الاعتراضات المذكورة في النقاط التالية:

١ — لا تناقض بين الشفاعة والتوحيد في العبادة، ولا بينها وبين التوحيد الذاتي، وذلك لأن رحمة الشفيع ليست سوى أشعة من رحمة الله. إن الشفاعة والرحمة منبعثتان من الله تعالى. وهذا جواب الاعتراضين الأول والثاني.

٢ — الاعتقاد بمغفرة الله لا يدفع إلى تجربة المذنب، بل يُحْيِي فيه الأمل. ومثله الاعتقاد بالشفاعة، فهو لا يشجع على ارتكاب الذنوب. لأننا إذا علمنا بأن شرط شمول المغفرة والشفاعة هو رضى الله ومشيبته، فإن أثر هذا الاعتقاد سيكون في إنقاذ القلوب من شر اليأس والقنوط، ووضعها بين الخوف والرجاء وهذا هو جواب الاعتراض الثالث.

٣ — الشفاعة نوعان: باطلة وصحيحة: إن ورود آيات في القرآن تنفي الشفاعة، وآيات أخرى تثبتها، دليل على أن هناك نوعين من الشفاعات. والقرآن

١٣٢ — «النساء: ٦٤».

يسعى إلى حرف الأذهان عن الشفاعة الباطلة، وتوجيهها نحو الشفاعة الصحيحة الحقة. وهذا جواب الاعتراض الرابع.

٤ - لا تناقض بين الشفاعة والعمل، لأن العمل هو العلة المنفعلة، ورحمة الله هي العلة الفاعلة. وهذا جواب الاعتراض الخامس.

٥ - الشفاعة الصحيحة لا تعني أن الله قد وقع تحت أي تأثير خارجي، لأنها تسير من الأعلى إلى الأسفل. وهذا جواب الاعتراض السادس.

٦ - ليس ثمة استثناء ولا (انعدام عدالة) في أي من الشفاعة والمغفرة، لأن رحمة الله تعالى غير محدودة، ولا يُحرم منها أحد إلا إذا لم يكن هو جديراً بها لقصوره أو تقصيره. وهذا جواب الاعتراض السابع ١٣٣.

في ختام بحث الشفاعة، ولإتمام الفائدة لمصلحة القراء الكرام، نورد مقالة لصاحب تفسير «الميزان»، المرحوم العلامة الطباطبائي (قدس الله نفسه الزكية) ليتبين للقراء مدى علو كعب أفكار الفلاسفة والحكماء الشيعة وعمق آرائهم التي تعتبر من مفاخر عالم الاسلام، وليعلموا أن المشاكل التي لم يستطع حلها أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب، فتخطوا في متاهات أوصلتهم إلى طرق مسدودة، فراحوا يتفوهون بتلك الترهات والأباطيل، منحدرين في زلاتهم وهفواتهم، استطاع هؤلاء العلماء المتعمقون أن يجدوا الأجوبة الصحيحة دون عناء، وأن يحلوا تلك المشاكل.

يخاطب صاحب «الميزان» (ره) أولئك الذين ساروا في طريق الإفراط، واعتبروا حتى الاستشفاء وطلب الحاجة في حرم الإمام نوعاً من الشرك، فيقول: «شفاء المرض وقضاء الحاجات بيد الله، لا بيد الإمام... ولتوضيح ذلك لابد من إيراد المقدمة التالية: إن قانون العلة والمعلول قانون عام يسري على جميع كائنات العالم، فكل حدث أو معلول محتاج إلى علة تظهره إلى الوجود. وعليه، فالعالم عالم الأسباب، والعلة الحقيقية والمستقلة في تأثيرها في الجميع هو الله تعالى،

إذ «لواجتمعت كل سيوف الدنيا على أن تقطع عرقاً من العروق ما كان لها ذلك إلا بمشيئة الله».

والعلة الأخرى المستقرة بين الله والمعلول الإمكانى هي «الواسطة» التي يكون فعلها وأثرها هما فعل الله نفسه وأثره.. إن «توسط» شيء في إيصال فيض الوجود إلى المعلول شيء والشرك والاستقلال في التأثير شيء آخر: إن مثل إسناد فعل إلى «الواسطة» أو «صاحب الوساطة» مثل إنسان يمسك القلم بيده ويكتب، فلا شك أن كلا القلم واليد قد اشتركا في فعل الكتابة مع الإنسان، فمع أن فعل واحد، ولكن يمكن نسبته إلى الثلاثة، ولكن الإنسان هو صاحب التأثير المستقل في الكتابة، بينما القلم واليد «واسطتان» لاشريكان.

والقرآن في جميع الأعمال والآثار التي يسندها إلى المخلوقات، وجميع المناقشات التي يدخلها بهذا الشأن، يتقبل قانون العلة والمعلول العام. ولكنه في الوقت نفسه يحتفظ بالاستقلال في التأثير لله تعالى، كما في الآية الشريفة:

«وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى»

و «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم»^{١٣٤}

و «إنما يريد الله ليعذبهم بها»^{١٣٥}

وبناءً على ما ذكرنا عن «الوسيلة» و «الواسطة» لا يكون طلب الحاجة من الإمام شركاً، إلا إذا اعتبر صاحب الحاجة الإمام مستقلاً في تأثيره وأنه ذاتي القدرة، أما إذا اعتبر التأثير من الله، وأن الإمام ليس سوى «واسطة» و «وسيلة»، فإن دعوة الوساطة، في تلك الحالة، تكون في الواقع كدعوة صاحب الوسيلة والواسطة، بمثابة أن إطاعة الوساطة هي إطاعة لصاحب الوساطة، كما جاء في القرآن الكريم:

«من يطع الرسول فقد أطاع الله»^{١٣٦}.

١٣٤ — «التوبة: ١٤».

١٣٥ — «التوبة: ٥٥».

١٣٦ — «النساء: ٨٠».

وكما جاء فيه أيضاً بشأن الملائكة:

«لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»^{١٣٧} أي إنهم ليست لهم إرادة مستقلة، وما إرادتهم إلا من إرادة الله.

وبلغة بسيطة: لما كان الأنبياء والأولياء من المقرّين عند الله ولهم عنده منزلة وكرامة، فإذا جعلهم أحد «واسطة» لنيل الفيض الإلهي، وعن طريقهم طلبوا قضاء حاجاتهم من الله، فإن ذلك لا يجمعه مع «الشرك» جامع، ولا يناقض «التوحيد» إطلاقاً. إن أي شخص عاقل لا يمكن أن يعتبر «الوسيلة» أو «الواسطة» شريكاً، إذ إن الوسيلة والواسطة رابط يربط المتوسل بالمتوسل إليه، و«الرابط» بالطبع وبحكم العقل، ليس هو «المقصود»، وإن «الطريق» ليس هو «المقصد» الذي يسار إليه. فمثلاً إذا تشفع أحد عند غني لصالح أحد الفقراء و حصل له على بعض المال، فما من عاقل يمكن أن يقول إن ذلك المال كان عطية الغني والشفيع كليهما، بل يقول إن الغني هو صاحب العطاء، والشفيع هو «الواسطة» و «الرابط» فحسب^{١٣٨}.

الوهابيون وتكفير المسلمين

إن من أخطر الأفكار الوهابية التي كانت لها نتائج سوء مريرة، واستعملها الاستعماريون كأخطر سلاح بيدهم، هو القول بتكفير سائر المسلمين واعتبارهم مشركين. يرى الوهابيون أنهم هم وحدهم الموحدون ومن أهل التوحيد، وأن سائر المسلمين قد أشركوا وكفروا. إنهم، لإغراقهم في التعصب والجهل والضلال والانحراف يعتبرون بدعهم هي الدين والهداية، وحكموا بضلالة غيرهم من المسلمين وبكفرهم. وقد أنزل هذا، عملياً، أكبر الضربات بالأمة الإسلامية، وقام كأكبر حجر عثرة في طريق وحدة المسلمين واتحادهم وبوجه إعلاء كلمة الله والاسلام.

ونحن لكي نبين أن هذا الأسلوب في التفكير لا أساس له، بل إنه

١٣٧ — «الأنبياء: ٢٧».

١٣٨ — تفسير «الميزان» ج ١ ص ٢٩٥.

لا ينسجم مع القرآن ولا مع السنة، بل هو ضد القرآن والاسلام، وله أضرار كبيرة وخطرة ومهلكة، نورد بحثاً موجزاً بهذا الشأن، ثم نشرع بذكر فتاوى علماء السنة والشيعية في هذا الموضوع، وفي الختام نشير إلى المصائب والأضرار الناتجة من هذا العمل القبيح والفكر المنحرف.

إن الوهابيين، بنظرهم الخاطئة إلى التوحيد القرآني وبأسلوب تفكيرهم الغلط في المسائل العقائدية، حكموا على المسلمين، إخوانهم في الدين، بأنهم كفار مشركون، ويواجهونهم في الأماكن المقدسة التي تقع تحت سلطتهم، كمكة والمدينة، بالضرب والشتم والاعتداء، على العكس تماماً مما يرضاه الله ورسوله. إن هدفهم هو القضاء على الاسلام، إذ إن التهم التي ينسبونها لغيرهم من المسلمين، والظلم الذي ينزلونه بهم، لاهو موجود في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة، بل هو في الحقيقة خلاف الكتاب والسنة.

والعجيب في أن هؤلاء الوهابيين يعتبرون أنفسهم، مع كل ذلك، من أهل السنة، أي من الذين يتبعون سنة رسول الله صلى الله عليه وآله في السلوك والعمل، بينما سنة الرسول وشريعته التي جاءت لعموم المسلمين، وكذلك سيرة المسلمين والعلماء الاعلام وأئمة المذاهب الاسلامية، تتناقض مع ما يحمله هؤلاء من أفكار، وترفضها.

بل إن ابن تيمية نفسه، في الصفحة ١٩ من كتابه «منهاج السنة»، وفي الرد على الذين ينتقدون إخوانه من أهل السنة، يقول:

«لأكثر هذه الامور أعذار شرعية تخرجها من صورة الإثم وتجعلها من الحالات الاجتهادية التي إن أصاب فيها المجتهد كان له أجر حسنتين، وإن أخطأ كان له أجر حسنة واحدة. إن أكثر ما نقل عن الخلفاء الراشدين مما هو مسلم به من هذا القبيل» ١٣٩.

وابن تيمية يستند في مقولته هذه الى حديث ورد في «صحيح» البخاري

١٣٩ — «تجزيه وتحليل عقائد فرقة وهابي» تأليف السيد محمد حسن القزويني وترجمة علي دواني، نشر قدس ص ٣٦.

عن عمرو بن العاص أنه قال: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»^{١٤٠}

وفي الصفحة ٢٠ من كتاب ابن تيمية المذكور يقول: ان العلماء القدامى ومراجع الفتوى، مثل أبي حنيفة والشافعي والثوري وداود بن علي وغيرهم يرون أن المجتهد الذي يخطئ في بيان الحكم الشرعي ليس آثماً، لا في الأصول ولا في الفروع، حسباً نقل عنهم ابن حزم وغيره.

لذلك فقد كان أبوحنيفة والشافعي وغيرهما يقبلون شهادة الذين يتبعون أهواءهم من غير الفرقة «الخطابية»، ويميزون الانتماء بهم في الصلاة، مع أن شهادة الكفار لا تقبل عند المسلم، ولا تجوز الصلاة خلفهم.

قال السابقون: هذا رأي كبار الصحابة والتابعين وأئمة الدين، فهم لم يكفروا أي مسلم ولم يعتبروه فاسقاً، وإذا أخطأ المجتهد لم يروه آثماً، لا في المسائل العلمية ولا في الفروع الفقهية^{١٤١}.

وابن حزم الاندلسي في الصفحة ٢٤٧ من أواخر الجزء الثالث من كتابه «الفصل» الذي يتناول فيه العقائد والمذاهب الاسلامية، يقول: «وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أوفتيا، وأن كل من اجتهد في شيء من ذلك فلان بما رأى أنه الحق فإنه مأجور على كل حال، إن أصاب الحق فأجران، وإن أخطأ فأجر واحد»^{١٤٢}.

الوهابيون وانتهاء حكمهم حرمة المسلمين في أرواحهم وأموالهم وأعراضهم
[واستناداً إلى هذه الأقوال، نسأل الوهابيين الذين يعتبرون أنفسهم من

١٤٠ — صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيشابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت، ج ٣ ص ١٣٤٢، الحديث ١٥. وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ٢ ص ١٨٧، طبع دار الفكر.

١٤١ — «تجزيه وتحليل» ص ٣٥.

١٤٢ — «الفصل في الملل والأهواء والنحل» للإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، ج ٢ ص ٢٤٧، باب «الكلام فيمن يكفر ومن لا يكفر» طبع دار المعرفة. بيروت.

أهل السنة (وهم يقبلون جميع أولئك العلماء ويستندون إلى كتبهم): إذا كان ما قاله علماءكم هؤلاء هو الأصل والأساس في أمور دينكم، فبأي دليل شرعي تكفرون سائر طوائف المسلمين الذين يتفقون معكم في السلوك، وتتهمونهم بالشرك، وتبيحون تعذيبهم بشتى أنواع التعذيب، وتعتبرون بلادهم من بلدان الكافر الحربي؟ مع أن الله تعالى يقول: «... إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...» (الحج: ١٠) ويقول: «... واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا...» (آل عمران: ١٠٣)

ويقول: «ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانا على سرر متقابلين» (الحج: ١٥)

ويقول: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات...» (البروج: ١١)

ويقول: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون» (التوبة: ١١)

والأحاديث الشريفة الصحيحة تقول: إذا شهد أحد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله فقد صان دمه، وماله، وعرضه.

وجاء في صحيح البخاري عن عبدالله بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما بعث معاذ بن جبل على اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب (اليهود والنصارى) فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم الزكاة من أموالهم وتُرَدُّ على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس»^{١٤٣}.

وجاء في صحيح البخاري، في (باب فضائل علي عليه السلام): «عندما دفع رسول الله (ص) الراية بيد علي (ع) في حرب خيبر، قال علي: يا

١٤٣ - صحيح البخاري، ج ٣ - ٢ - ١، ص ١٤٧، باب «لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة». طبع دار إحياء التراث العربي. بيروت.

رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حمر النعم»^{١٤٤}.

أي إنهم إذا نطقوا بالشهادتين أصبحوا ودمائهم مصالاة لا تجوز إراقتها. ويروي البخاري أيضاً عن ابن عباس أن وفد عبدالقيس لما أتوا النبي (ص) أمرهم بالإيمان بالله وحده وقال:

«أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تُعطوا من الغنم الخمس...»^{١٤٥}.

والآن، أنتم أيها المؤمنون بكتاب الله والعارفون بأحكام شريعة سيد المرسلين، أليس عدااء الوهابيين لأهل الحق وإخوانكم المسلمين اعتداء على حدود الله وأحكامه؟

وبديهي أنه لا حاجة للقول بأن الدين الاسلامي وما جاء به محمد المصطفى صلى الله عليه وآله من قبل الله، يقفان على طرفي نقيض مع هذه الأعمال الفظة الخشنة التي يرتكبها الوهابيون.

فلتسألوهم: «أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟»

وعليه، فإن من يصدر حكماً من عنده يكون قد اتبع هواه، وهذا ما حذر الله رسوله منه، حيث قال:

«فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» (ص: ٢٦)

فن خالف أمر الله هذا يكون قد عصاه، وخاصة بعد أن يكون الحق قد

١٤٤ - المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢٢، باب «مناقب علي بن أبي طالب»، الحديث الأول.

١٤٥ - المصدر نفسه، مج ١، ج ١، ص ٢١، باب «إداء الخمس من الأيمان»، الحديث الأول.

تجلى له وأدلة الحقيقة قد تبينّت أمامه»^{١٤٦} .

الوهابيون يعصون أمر الله

[وعليه، فإن معيار اتباع الحق هو الإذعان لما أمر به الله في كتابه، وإلا فإن كل فرقة ترى أنها وجدها على حق، وأنها هي التي تعمل بالعدل والإحسان، وهو السلوك السائد عادة بين الجهلاء من الناس وإن من السلوك السائد عند الوهابيين هو أن زعيمهم الديني يحكم على وفق ما جرت عليه العادات، لا على وفق ما جاء في الكتاب والسنة. ولهذا تنطبق عليهم الآية الشريفة:

«... فإن تولوا فاعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون»^{١٤٧} .

والآية:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون»^{١٤٨} .

وقد جاء هذا عن الذين لا يميزون عصيان أمر الله، أما إذا أجازوا ذلك فإنهم كفّار، كما يقول سبحانه وتعالى:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»^{١٤٩} .

وحتى لو فرضنا أن هناك نزاعاً بين المسلمين وأنهم اختلفوا فيما بينهم على أمر ما، فإن عليهم أن يرجعوا في ذلك إلى الله ورسوله، كما جاء في كتاب الله:

«فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر...»^{١٥٠} .

وبناءً على ذلك، إذا سخرت طائفة من معتقدات طائفة أخرى، أو إذا سبّتها ولعنّتها، واتهمتها بالكفر والإلحاد، فإن ذلك يكون تفريقاً لوحدة المسلمين،

١٤٦ — «الفصل» ص ٣٨.

١٤٧ — «المائدة: ٤٩».

١٤٨ — «المائدة: ٤٧».

١٤٩ — «المائدة: ٤٤».

١٥٠ — «النساء: ٥٩».

الأمر الذي نهى عنه الله في هذه الآية:

«إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء...» ١٥١.

ويقول:

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون» ١٥٢.

ويقول:

«ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» ١٥٣.

هكذا نجد أن الله تعالى يأمر المؤمنين أن يتمسكوا بحبل الله، وأن يتجنبوا التفرق، فقد فسر «حبل الله» بأنه دين الله، ودين الله هو الاسلام: «إن الدين عند الله الاسلام» ١٥٤.

والاسلام هو الإيمان، والإيمان هو إعلان الشهادتين: لا اله إلا الله، ومحمد رسول الله.

فللمسلمين، إذن، دين واحد، وقد وضع الله للمسلمين حدوداً لا يجوز لهم أن يتجاوزوها. من ذلك أنه حرم عليهم ظلم إخوانهم المسلمين، وانتهاك حرمة أموالهم وأرواحهم وأعراضهم.

جاء في صحيح البخاري أن النبي (ص) قال في حجة الوداع:

«... أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت، ألتهم أشهد...».

وفي صحيح البخاري أيضاً من عدة طرق عن رسول الله (ص) أنه قال في حجة الوداع:

١٥١ — «الأأنعام: ١٥٩».

١٥٢ — «آل عمران: ١٠٢».

١٥٣ — «آل عمران: ١٠٥».

١٥٤ — «آل عمران: ١٩».

«... أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت، أَللّهُم اشهد. فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...»

نستنتج من كل هذا أن الوهابيين يعملون بخلاف الكتاب والسنة—لأن الكتاب والسنة يقولان: يجب أن يتضامَّ المسلمون بالمحبة والتعاطف، لا أن يقع بينهم الشقاق ويخاصم بعضهم بعضاً—وَيَسْمُون المسلمين بالكفر، ويعتدوا عليهم بالضرب والشم. هذا كل ما نريد أن نقوله للوهابيين:

«تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق»... [١٥٥].

موقف الاسلام الصريح

والآن، لكي يزداد القارئ الكريم معرفة بالموضوع، ولأهميته ايضاً، نباشر بإيراد البحث المسهب العميق الذي وعدناه به في بداية هذا الكتاب حول قضية التكفير في نظر القرآن والروايات وعلماء الفريقين، آمليْن أن ينتفع به المسلمون كافة.

بالرجوع الى النصوص الإسلامية، يتبين لنا أن من ادَّعى الإسلام ونطق بالشهادتين، لا يجوز بعد ذلك تكفيره. وهناك روايات وأحاديث كثيرة بهذا الشأن في كتب كلا الفريقين الأصيله، تستقبح كلّها التكفير وتنهى عنه، بل لقد اعتبر بعض الروايات كل من يكفّر المسلمين كافراً. وفيما يلي بعض تلك الآيات والأحاديث:

قال الله تبارك وتعالى:

«ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» ١٥٦.

وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية أن رسول الله صَلَّى الله عليه وآله لما رجع من غزوة خيبر وبعث أسامة بن زيد في خيل إلى بعض قرى اليهود في ناحية فدك ليدعوهم إلى الاسلام، كان رجل يقال له مرداس ابن نهيك الفدكي في

١٥٥ — «الفصل» ص ٣٨.

١٥٦ — «النساء: ٩٤».

بعض القرى، فلما أحس بخيل رسول الله (ص) جمع أهله وماله في ناحية الجبل وأقبل يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فربه أسامة بن زيد فطنعه فقتله. وأخذ أمواله فلما رجع إلى رسول الله أخبره بذلك، قال رسول الله (ص): قتل رجلًا شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ فقال: يا رسول الله قالها تعوذاً من القتل، فقال رسول الله (ص): «فهلّا شققت قلبه» أي إنك لم تطلع على ما في قلبه ولم تقبل قوله بلسانه فعسى أن يكون مسلماً حقيقياً. «١٥٧»

هنالك رواية بهذا المضمون وردت في صحيح البخاري ومسلم، جاء فيها: قال أسامة بن زيد «إن رسول الله (ص) أرسلنا إلى «الحرقه» حيث هاجمنا أهلها وهزمناهم، وقت أنا وأحد الأنصار بتعقيب أحد الفارين، وما أن أمسكناه حتى صاح: «لا إله إلا الله» فتركه الأنصاري، ولكنني هاجمته بالرمح وقتلته. وعند رجوعي كان الخبر قد بلغ رسول الله (ص)، فقال لي: يا أسامة، أقتلته بعد أن اعترف بوحداية الله؟ فقلت: كان يريد بذلك أن ينجو بحياته من القتل. فكرر النبي (ص): قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ وأخذ يكرر ذلك حتى تمنيت لو لم أكن قد أسلمت قبل ذلك. ١٥٨

لقد أدرك أسامة من الحالة التي انتابت رسول الله (ص) أن كل أعماله من صلاة وصوم وجهاد،... الخ لن تكفي لغسل هذا الجرم عنه، وأنه يخشى أن لا يغفر الله له، لذلك تمتمى لو أنه أسلم بعد الحادث، لاقبله.

يؤخذ من هذه الرواية أن من يظهر الاسلام (ينطق بالشهادتين) لا يجوز تكفيره. إننا لو لم يكن لدينا سوى هذه الآية وهذه الرواية، حول عدم تكفير المسلم وجوب تبادل الاحترام بين الفرق والمذاهب الاسلامية، لكان فيها الكفاية، إذ إن من يجعل الشهادتين ملجأ له لا بد أن يحترم. بديهي أن من ينطق بهما دون أن

١٥٧ — «البرهان في تفسير القرآن» تأليف العلامة الخبير السيد هاشم الحسيني البحراني، ج ١ ص ٤٠٦.

١٥٨ — المصدر نفسه.

يكون هذا هدفه، يكون جديراً باحترام أكبر، ولكنها كلاهما لا يجوز أن يتعرضا للعداء والسب والشتم واللعن والطرْد والتفسيق والتكفير. إلا أن هناك الكثير من أمثال هذه الروايات، بل وأكثر صراحة منها، يروها الفريقان، من ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من كفر مؤمناً صار كافراً» ١٥٩.

وقال الإمام الباقر (ع):

«ما شهد رجل على رجل بكفر قط إلا باء به أحدهما، إن كان شهد (به) على كافر صدق، وإن كان مؤمناً رجع الكفر إليه، فإياكم والطعن على المؤمنين» ١٦٠.

وهذا المضمون جاء في كنز العمال عن رسول الله (ص):

«أيها امرئ! قال لأخيه: كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه» ١٦١.

وفي ذلك يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع):

«ملعون ملعون من رمى مؤمناً بالكفر، ومن رمى مؤمناً بالكفر فهو كقتله» ١٦٢.

كذلك في كنز العمال عن رسول الله (ص):

«إذا قال الرجل لأخيه: كافر، فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله» ١٦٣.

وإذا عدنا إلى الماضي نطالع التاريخ الإسلامي والمذاهب الإسلامية، للاحظنا أن التفسيق والتكفير كثيراً ما أدى إلى قتل بريء أو أبرياء.

١٥٩ - «الموطأ» لمالك.

١٦٠ - «أصول الكافي» ج ٢ ص ٣٦٠.

١٦١ - «كنز العمال» ٨٢٧٢/٦٣٥ عن صحيح مسلم، والاحاديث ٨٢٦٦ و ٨٢٧٣ و ٨٢٨١ و ٨٢٧٠ تفيد المضمون نفسه.

١٦٢ - «سفينة البحار» للقمي (ره) مادة «كفر».

١٦٣ - «كنز العمال» ٨٢٦٤/٦٣٥.

جاء في الروايات أنه في يوم القيامة يُؤتى برجل أدى فروضه في الدنيا خير أداء، ولكنه عند الحساب يجد في صحيفة أعماله أنه قد ارتكب إثماً عظيماً، وعند اعتراضه يقال له: هذه حصتك من دم فلان. فيقول إنني لم أقتل أحداً، فيأتيه الجواب: إنك سمعت عبارة عنه فأخذت تنشرها وكان من آثار ذلك أنها أدت الى قتله. فأنت بنقلك ما نقلت عنه أصبحت شريكاً في قتله^{١٦٤}.

ومطالعة روايات الفريقين، التي ذكرنا بعضها، نستنتج أن التفسير والتكفير والسب واللعن والاحقاد الجاهلية والتناحر الطائفي وما إلى ذلك مما لم يبرح منذ صدر الاسلام حتى اليوم يشغل صفحات كثيرة من التاريخ، إنما هي أمور محرمة وتتناقض تناقضاً ضريحاً مع المبادئ الاسلامية، والروايات يذكرها الفريقان. لاشك انه يتطلب الكثير من الجرأة أن يعمد مسلم إلى اتهام مسلم آخر بعدم التزامه القلبي الاصول والمعتقدات الدينية، أو استحسان أو استهجان أعمال بعض الصحابة، أو حتى اعتبار الاختلافات المذهبية أو الاقتصادية أو المنظورات الاسلامية سبباً لتفسير مسلم آخر وتكفيره. إن ذلك في الحقيقة انحراف عن الاسلام.

ولكن الذي يؤسف له أن نجد أتباع الاسلام، نتيجة لجهلهم بأصول الاسلام ومبادئه، يسلكون سلوكاً مستهجناً بعض مع بعض، ذلك السلوك غير المنطقي الذي يبعث على التفرقة والتشتت في شيع متنافرة، بحيث راحت كل فرقة تعادي الفرقة الأخرى فتسبها وتلعنها وتكفرها.

روايات غير مباشرة

بالإضافة إلى الروايات التي تنهى نهياً صريحاً المسلمين عن تكفير بعضهم بعضاً وتبيين الآثار السلبية لذلك، هنالك روايات أخرى تؤكد حرمة تكفير المسلم في نظر الاسلام ضمن النهي عن أمور أخرى، مثل: هتك شخصية المؤمن، الافتراء على المؤمن، سب المؤمن ولعنه، تحقير المؤمن، هجو المؤمن، لوم المؤمن، إهانة المؤمن وايدائه، الاستهزاء بالمؤمن، كشف عيوب المؤمن، معاداة المسلمين، وغير ذلك من

١٦٤ — «بحار الأنوار» ج ٧ ص ٨٦ طبع بيروت.

الأُمُور المنهي عنها، وهي كلها تؤكد حرمة التكفير ضمناً، مما سوف نشير إلى بعضه بصورة موجزة.

هتك شخصية المؤمن

الإسلام يحترم كرامة المسلم ونفسه وماله وعرضه. يقول رسول الإسلام صلى الله عليه وآله:

«إن الله حَرَّمَ على المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظن به السوء».^{١٦٥}
فمن يفعل ذلك يرتكب إثماً كبيراً وله في الآخرة عذاب أليم. وعليه فإن هتك حرمة المؤمن حرام بأي شكل كان، بالاستهزاء، أو بالاستخفاف، أو باللوم، أو بالإهانة، أو باللعن، أو بالتكفير، لأن هذه كلها تعتبر هتكاً لشخصية المؤمن.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان»^{١٦٦}
فأي رواية على مؤمن أقبح من تكفيره وإهانة شخصيته في عقيدته؟!

الافتراء على المؤمن

الافتراء، أو البهتان، هو أن تنسب إلى الآخرين ما ليس فيهم. وهذا ما ينهى عنه الإسلام أشد النهي، ويعدّه من بين الذنوب الكبيرة. وللافتراء أنواع متعددة، أقبحها نسبة الكفر إلى المؤمن، كما جاء في الأحاديث. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من بهت مؤمناً، أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله عز وجل يوم القيامة على تلٍّ من نار حتى يخرج ممّا قال فيه»^{٣١٧}.
وقال الإمام جعفر الصادق (ع):

١٦٥ — «المحجة البيضاء» ج ٥ ص ٢٦٨.

١٦٦ — «أصول الكافي» ج ٢ ص ٣٥٨.

١٦٧ — «بجاء الأنوار» ج ١٦ ص ١٧٠، «كنز العمال» ج ٣ ص ٥٦٦.

«من اتهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما، ومن عامل أخاه بمثل ما عامل به الناس فهو بريء مما ينتحل»^{١٦٨}.

سب المؤمن ولعنه

تبادل التهم القبيحة بين المؤمنين، والترامي بالكلمات النابية، كالحائن، والفاسق، والفاجر، والملعون، وأكبرها اتهام المؤمن بالشرك، وأمثال ذلك مما يتضمن تحقير المسلم وإهانته، حرام. وهناك أحاديث كثيرة في النهي عن ذلك.

قال الإمام محمد الباقر (ع):

«سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وحرمة ماله كحرمة دمه، ولعن المؤمن كقتله»^{١٦٩}.

فتاوى العلماء ضد تكفير المسلمين

نورد هنا نبذة من فتاوى أئمة المذاهب وكبار علماء الاسلام، لكي يتبين أن إيجاد جرم التكفير والافتراء في المجتمعات الاسلامية ليس له ما يؤيده في الاسلام، فلا هو ينسجم مع روح التعاليم الاسلامية المحيية، ولا مع الآيات والأحاديث، ولا مع فتاوى علماء الاسلام.

فتاوى علماء الشيعة

لقد ورد على ألسنة كبار علماء الشيعة، مثل الشيخ الصدوق (ره) في «الهداية»، والشيخ المفيد (ره) في «أوائل المقالات»، والمحقق (ره) في «الشرايع»، وصاحب الجواهر (ره) في «جواهر الكلام»^{١٧١}، وآية الله الحكيم (ره) في «مستمسك العروة الوثقى»^{١٧٢}، والآمل (ره) في «مصباح الهدى»^{١٧٣}،

١٦٨ - «أصول الكافي» ج ٢ ص ٣٦١.

١٦٩ - المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٦٠، «كنز العمال» ج ٢ ص ٥٩٢.

١٧٠ - «جوامع الفقيه» ص ٤٧.

١٧١ - «جواهر الكلام» ص ٥٨.

١٧٢ - «مستمسك العروة الوثقى» ج ٢ ص ١٢٣.

١٧٣ - «مصباح الهدى» ج ١ ص ٣٦١.

والعلامة المجلسي (ره) في «بحار الأنوار»^{١٧٤}، والحاج أقا رضا الهمداني (ره) في «مصباح الفقيه» أن: من نطق بالشهادتين فهو مسلم وتنطبق بحقه جميع الأحكام الإسلامية الاجتماعية والحقوقية والجزائية.

وكمثال على ذلك، قال الشيخ الصدوق (ره) في «الهداية»: «الاسلام هو الإقرار بالشهادتين، وهو الذي تحقن به الدماء والأموال، فن قال: لا إله إلا الله، محمداً رسول الله، فقد حقن ماله ودمه»^{١٧٥}.
فن كانت هذه فتواه لا يمكن أن يحير تكفير من يُقر بالشهادتين.
فتاوى علماء أهل السنة

فتوى الأشعري: يقول أحمد بن زاهر السرخي، وهو من كبار تلامذة الامام أبي الحسن الأشعري: قبيل وفاته (أي الأشعري) كان في بيتي ببغداد، فأمرني أن استدعي تلامذته وأتباعه للحضور، وعندما التام جمعهم، قال مخاطبهم: «إشهدوا عليّ أنني لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنب لأنهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد، والإسلام يشملهم ويعمهم»^{١٧٦}.
فتوى الشافعي: صرح شيخ الإسلام المخزومي في «الرسالة»: «لا أكفر أهل الأهواء بذنب»^{١٧٧}.

وفي موضع آخر يقول:
«لا أكفر أحداً من أهل القبلة بذنب»^{١٧٨}.
بل إن الشافعية مجمعون على عدم تكفير الخوارج. فإذا كان الخوارج — الذين أحلوا اراقة دماء المسلمين، وأباحوا أموالهم، وكفروا أصحاب محمد صلى عليه وآله — مسلمين، فكيف بأصحاب المذاهب الأخرى؟

١٧٤ — «بحار الأنوار» ج ٦٨.

١٧٥ — «جوامع الفقيه» ص ٤٧.

١٧٦ — «الفصول المهمة» ص ٢٩.

١٧٧ — المصدر نفسه.

١٧٨ — المصدر نفسه.

يؤكد ابن عابدين في كتابه «رد المحتار» أن الذين يلعنون الصحابة وفق اجتهادهم مسلمون، ويقول:

«تكفير هؤلاء يخالف إجماع الفقهاء، ويناقض ما جاء في كتاباتهم، وما ورد من أقوال في تكفيرهم لم يأت من الفقهاء، بل من غيرهم، فهي لا قيمة لها» ١٧٩.

فتوى أبي حنيفة وغيره

قال ابن حزم، وهو من أئمة الظاهرية: «... وذهبت طائفة إلى أنه لا يكفر ولا يُفسق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فتيا... وهذا قول ابن أبي ليلى، (وهو من معاصري أبي حنيفة) وأبي حنيفة، والشافعي، وسفيان الثوري (وهو من معاصري أبي حنيفة أيضا) وداود بن علي (وهو من أئمة الظاهرية أيضا) وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة ولا نعلم فيه خلافا في ذلك...» ١٨٠.

وعندما يُسأل شيخ الاسلام تقي الدين السبكي حول تكفير أهل الهوى والبدع، يقول في جوابه ما مضمونه:

«إعلم يا أخي أن إبداء الرأي في تكفير أهل الإيمان أمر صعب، فمن سكن الإيمان في قلبه يستعظم تكفير أهل الهوى والبدع، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله. تفكير الآخرين عمل مخوف خطير...» ١٨١.

وفي موضع آخر، عندما يسألونه عن الغلاة وأهل البدع وأهل الهوى والمتكلمين والفلاسفة، يقول:

«إعلم أن من يخشى الله عزوجل لن يجرؤ أبداً على تكفير من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله... لن يتجرأ أحد على تكفير أحد إلا إذا خرج هون نفسه عن أصول الدين وأنكر الشهادتين، وبذلك يكون قد خرج من الاسلام...» ١٨٢.

١٧٩ - المصدر نفسه.

١٨٠ - «الفصل» ج ٢ ص ٢٤٧.

١٨١ - «الفصول المهمة» نقلا عن «طبقات» الشيرازي.

١٨٢ - المصدر نفسه.

ويقول الأوزاعي: «والله لو قطعت إرباً إرباً فلن أفتح في بتكفير أحد من أهل الشهادتين»^{١٨٣}.

وسئل الحسن البصري عن أهل الأهواء، فقال:
«جميع أهل التوحيد هم أمة محمد (ص) وسيدخلون الجنة دون ريب»^{١٨٤}.

كما أفتى الزهري، وسفيان الثوري، وسعيد بن المسيب، وغيرهم بجرمة تكفير المسلم ومعاداته.^{١٨٥}

أما وقد ثبت الآن عدم وجود أي أساس شرعي لتكفير المسلمين، وثبتت معارضة الاسلام له من جميع الوجوه، فقد أصبح من واجب المسلمين عموماً، وعلمائهم خصوصاً — لكونهم الحفظة لتعاليم الاسلام وأوامره — أن يبذلوا كل ما في قدرتهم من جهد لغسل وصمة العار هذه عن جبين المجتمع الاسلامي، ولاقتلاع جذور هذه الظاهرة المشؤومة، ليربحوا خواطر المسلمين الذين ظلوا سنين طوالاً يتحملون أنواع العذاب والآلام والتشتت والبغضاء، وليعيدوا علائق الأخوة والروابط الاجتماعية، المبنية على أصول العقائد الاسلامية وفروعها، الى ما كانت عليه من القوة والتلاحم، وليجتمع المسلمون من جميع الفرق والعناصر على الاعتصام ببجل الله، وليقدروا قيمة هذه الطليعة التي بزغت اليوم في سماء إيران الاسلام وليستلهموها، وبذلك يمكن إزالة ما هنالك من مشاعر الحقد والكدر الواهية، ليقف الجميع كالجدار المرصوص ويبدأ واحدة يتحلّقون حول الاسلام ويقطعون أيادي الاستعمار، آمليّن أن يعثر المسلمون على ذواتهم وعظمتهم ومجدهم مرة أخرى في ظل هذه النعمة الإلهية، نعمة التآلف والمحبة والاتحاد بين جميع المسلمين].^{١٨٦}

١٨٣ — المصدر نفسه.

١٨٤ — المصدر نفسه.

١٨٥ — «الفصل» ص ٢٤٧.

١٨٦ — «حوزه» عدد آبان ١٣٦٥ ص ٧٦.

مذبحة المسلمين في كربلاء على أيدي الوهابيين

[تطالعنا في تاريخ حياة الوهابيين الاسود صفحات مليئة بالفواجع والحوادث المؤلمة لا يمكن لتقادم الزمن أن يمحوها من الأذهان، منها تلك الواقعة المشؤومة التي حدثت سنة ١٢١٦ هـ في مدينة كربلاء المقدسة. وإليك خلاصة لما حدث، منقولة من كتاب «تاريخ كربلاء» للدكتور السيد عبدالجواد الكليدار:

«أكبر الفواجع التي حدثت في كربلاء بعد واقعة الطف في عاشوراء الحسين (ع) هي الفاجعة التي ارتكبتها الوهابيون بحق أهل كربلاء سنة ١٢١٦ هـ، تلك الفاجعة الأليمة التي ما زال صداها يرنُّ في أسماع الدول الإسلامية والاروبية، وقد كتب عنها المؤرخون المسلمون والاروبيون، واعتبروها الواقعة الأليمة الثانية التي تقع في تاريخ كربلاء»^{١٨٧}.

ويقول ستيفن هميسلي لونجريك في كتابه «أربعة قرون من تاريخ

العراق»:

«لم يكن عرب نجد يختلفون في عقائدهم الدينية عن سائر الفرق الإسلامية حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري، إلى أن ظهر فيهم محمد بن عبد الوهاب بمذهبه الجديد القائم على رغبات البدو وأهوائهم.

وقعت أفكار محمد بن عبد الوهاب يومئذ موقع القبول لدى محمد بن سعود، أمير البادية. ورحل محمد بن عبد الوهاب الى بغداد لمواصلة الدراسة، ثم عاد إلى المدينة ومنها إلى العيينة في نجد.

إن الفاجعة الأليمة التي ارتكبتها الوهابيون بمنتهى الوحشية والطمع والجشع باسم الدين، حدثت عندما تحرك الوهابيون لمحاربة المسلمين.

عندما وصل خبر وصول الوهابيين الى مشارف كربلاء، كان معظم أهالي كربلاء قد قصدوا النجف بقصد الزيارة، فأسرع الذين بقوا منهم بإغلاق أبواب المدينة.

١٨٧ - «تجزئة وتحليل» ص ٢١.

كان الوهابيون قد جاءوا في ستمئة من المشاة وأربعمئة راكب، فمكروا خارج المدينة، ثم توزعوا في ثلاثة أقسام، وبدأوا هجومهم من ناحية (باب المحيم) ودخلوا المدينة، فهرب الناس الى كل طرف، واقتحم الوهابيون الطريق الى الحرم المطهر، حيث حطموا الضريح المقدس، ونهبوا جميع ما كان فيه من النفائس الثمينة، كالشمعدانات والسجاد النفيس والثريات المذهبة والأبواب المرصعة بالأحجار الثمينة وغير ذلك، ونقلوها إلى خارج المدينة، وحطموا الكثير من مرايا الأروقة والأبواب، كما قتلوا خمسين شخصا داخل الحرم الطاهر، وخمسمئة في الصحن الشريف.

وفي داخل المدينة ارتكبوا الكثير من الأعمال الوحشية من تدمير ونهب وفساد، فكانوا يقتلون كل من يصادفهم من دون أية رحمة ولا شفقة، ونهبوا جميع الدور. لم يخامرهم في هذه المذبحة أي عطف على الشيخ والشاب والصغير والكبير والمرأة والرجل، بحيث لم ينج أحد من قسوتهم البربرية. قال بعض إن عدد القتلى بلغ ألف شخص، وعدد المجروحين خمسة آلاف شخص».

في سنة ١٣٤٤ هـ أفقى فقهاء الوهابية في المدينة بهدم القبور في البقيع وفي غيره. وفي الثامن من شوال تلك السنة نفسها أمروا بهدم قبر الصديقة فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص)، فهدم. وهكذا هدموا قبور أربعة من أئمة المسلمين، هم: الإمام الحسن المجتبي، والإمام زين العابدين، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق عليهم السلام، وكذلك قبور العباس عم النبي، وإبراهيم بن النبي، وقبور زوجاته وعماته، وفاطمة بنت أسد، وحمزة سيد شهداء الاسلام عم النبي، وكأنهم في ذلك كانوا ينفذون ما أمرت به الآية الشريفة: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»^{١٨٨}.

وقد جاء في كتاب «مرآة الاحوال—جهان نما» الذي كتبه بالفارسية العالم الكبير الشيخ أحمد الكرمانشاهي الذي عاصر الحملة الوهابية على كربلاء، وهو

حفيد الفقيه الشيعي المشهور، وحيد البهبائي، ما خلاصته :

«... في تلك الأيام وصل خبر استيلاء الجماعة الوهابية على كربلاء الشريفة والمذبح العامة في تلك البلدة الطيبة. وخلاصة الواقعة هي : ان أهالي المدينة المؤمنين كانوا قد توجهوا إلى النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير سنة ١٢١٦ هـ لتقبيل أعتاب أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يبق في كربلاء من الرجال أحد. وإذ عرف سعود غير المسعود بهذا الأمر، هاجم تلك البلدة الطيبة في شهر ذي الحجة وفي يوم عيد الغدير الذي انشغل فيها الناس بالزيارة، فحاصروا القلعة، فانهمز الناس بسبب قلة عددهم، وعدم التهيؤ للأمر، وتخاذل (عمر آقا) الناصبي، حاكم المدينة.

حطم جيش الضلالة بوابة الحصار، ودخلوا المدينة منه ومن أطراف أخرى، وشرعوا يقتلون وينهبون، حتى بلغ عدد المقتولين من المؤمنين والمجاورين والزوار نحو ثلاثة آلاف شخص، وأصاب الهدم والتدمير القبة المباركة وحرم خامس أهل الكساء وسيد المظلومين، ودور المجاورين. وعند الزورال (ظهراً) عادوا إلى (الدرعية) من دون سبب ظاهر»^{١٨٩}.

كما إن (مير عبد اللطيف خان الشوشتری) — وهو من السادات النورية الشوشترية ومن حفدة السيد نعمة الله الجزائري، الفقيه المعروف في أواخر العهد الصفوي — أورد حوادث تاريخية وغيرها في كتابه «تحفة العالم» وهو من كتب الرحلات، ومنها ما كتبه عن ظهور محمد بن عبد الوهاب وأفكاره وتعاليمه المنحرفة، وهجوم الوهابيين على كربلاء وهدم الضريح والقبور، نذكر جانباً منه إتماماً لفائدة القراء الكرام.

يقول المؤلف في ختام رحلته المسماة «ذيل التحفة»:

«... كنت هناك عندما ورد الخبر المشؤوم عن عبدالعزيز الوهابي أنه في الثامن عشر من ذي الحجة من سنة ١٢١٦ هـ هجم بجيش من الأعراب على أرض

١٨٩ — «تجزيه وتحليل» ص ٢١.

كربلاء المقدسة وقتل نحواً من أربعة آلاف أو خمسة آلاف من المؤمنين، وأن مظاهر سوء الأدب التي بدت منه نحو الروضة المنورة ممّا لا يمكن التطرق إليه، ونهب المدينة واستولى على ما فيها وعاد إلى مقر رئاسته في الدرعية.

[أما وقد وصل الكلام إلى هذا الموضع، فمن المناسب أن نجيل القلم حول بدع الوهابية ليطلع الناظرون اطلاعا كاملا عليه وعلى مذهبه ولا يبقى في انتظار الكلام منتظراً:]

كان الشيخ عبد الوهاب، مؤسس هذا الأساس، من أهل الدرعية، من أعمال نجد، وكان بين أمثاله وأقرانه معروفاً بتوقد الذهن والذكاء، وموصوفاً بالعقل والكياسة، وكان مفرط الجود بحيث أنه كان يهب لأتباعه كل ما كان تحت يده. وبعد أن درس في موطنه شيئاً من العربية ومن الفقه الحنفي، رحل إلى اصفهان حيث استقى الحكمة في بيت الحكمة على أيدي أساتذة فضلاء وحكماء علماء، ونال بعض البصيرة في مسائل الحكمة، التي هي عند العوام كالأنعام، وعاد إلى وطنه سنة ١١٧١ هـ أو في سنة أو سنتين قبل ذلك أو بعده — اذ لا يمكن ضبط ذلك بدقة — وأصبح داعية في هذه الأمة. كان على الطريقة الحنفية، يقلد الإمام الأعظم أبا حنيفة في الأصول، وفي الفروع يتبع أراءه الشخصية. ثم بعد ذلك لوى جيده عن قلادة تقليد الإمام الأعظم، وأخذ يفتي مستقلاً بما يستحسنه، ويدعو الناس إلى ذلك. من ذلك أنه اعتبر جميع الفرق الإسلامية واليهود والنصارى وسائر أصناف الأنعام مشركين وكفاراً وفي عداد عبدة الأصنام. ودليله في ذلك أن المسلمين بتعظيمهم وتوقيرهم قبر سيد الرسل (ص) وروضته المقدسة، وقبور أئمة الهدى المنورة وبقاع الأوصياء والأولياء النيرة، ولانجاح أمورهم الدنيوية والأخروية يتوسّلون ويتضرّعون إلى تلك الأماكن المبنية من الحجر والطين، أو إلى أصحاب تلك القبور الأموات، ويسجدون أمام القبور ويمرغون جباههم في التراب على اعتبارها، فهذه كلها ليست سوى عبادة الأصنام، فكما أن عبدة الأصنام لا يدعون أن تلك الهياكل هي الله، بل يقولون إنها قبلتهم وإنهم بوساطتها يسألون الله أن يقضي لهم حاجاتهم، كذلك هي حال اليهود والنصارى الذين ينصبون في

معابدهم وكنائسهم تماثيل موسى والمسيح ويعبدونها ويستشفعون بها. أما عبادة الله فهي السجود لذات واجب الوجود، وعبادته جل شأنه، وعدم جعل شريك له. فتبعه في ذلك جمع من قبيلته ومن العامة، وصار له في أوساط نجد صوت واشتهار، ولم يزل يردد أنه سوف يهدم قبة رسول الأنعام ومراقد الأئمة الكرام وأنه يضع نصب عينيه عندما يتسلم السلطة بيده أن يساورها مع التراب ويمحو كل أثر لها، ولكن الأجل لم يمهله فمات قبل أن يحقق رغباته. وبعده لم يكتف وصيه عبدالعزيز، ولا ابنه سعود، خليفته، الذي يسمى بأمرير المسلمين، بأتباعه في نواحي نجد، بل دعا الناس البعيدين أيضا إلى طريقته، وسعى في الترويج لها، وأباح لأتباعه وأميته أموال سائر المسلمين ودماءهم، وأمرهم بقتل كل من يجدونه في كل مدينة يدخلونها ونهب أموالهم، ولكن عليهم أن لا يتعرضوا بسوء إلى النساء وأعراض الناس. وأعطى لكل (مجاهد) محارب صكا باسم (خازن الجنة) يعلقه في رقبته لكي يدخل الجنة، إذا قتل، مباشرة ومن دون سؤال، ويعيل بعياله في الدنيا من بعده. فكان أتباعه يلقون بأنفسهم في المعارك، يحدوهم الطمع في ما ينهبون، والأمل في دخول الجنة، لأنهم إذا انتصروا غنموا، وإذا قُتلوا أتاحت لهم صكوكهم دخول الجنة مباشرة.

وفي سنوات استولى على اطراف نجد والأحساء والقطيف وأكثر بر العرب حتى اربع فرائس من البصرة، وقريبا من عمان، وتغلّب على بني عتبة، وبعد أن قتل وأسر ونهب، دخل الناس في دنيه وآمنوا بطريقته وأذعنوا له، وذاع حديث قوته وشوكته. وعلى الرغم من أن أخبار فتوحاته كانت تصل إلى قيصر الروم وشاه العجم، فإن أحدا منها لم يتقدم لدفعه».

بعد ذلك يورد صاحب «تحفة العالم» جانباً من رسالة محمد بن عبد الوهاب في الفتوى والعقائد، قائلا إنه رآها عند أحد أتباعه، ثم يعلق عليها بقوله:

«على الرغم من أن أدلته يستند فيها إلى الآيات الكريمة، فإن ردّها موجود في كتاب الله أيضا، مثل تعظيم شعائر الله، واطاعة رسول الله التي لا تنفك عن

إطاعة الله، فإذا ثبتت إطاعة رسول الله كفرض عيني، فإن الآية الكريمة «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى» تؤيد هذا المعنى، ممّا يستوجب، كما قال النبي (ص)، الإقرار بالجنان والأركان واللسان، باعتباره من أوجب الواجبات، ولا يجوز التخلف عمّا نزل عليه وما قاله. وعليه فإذا شاء أحد، في التوسل والتضرّع والشدائد ودفع الضرر وجلب النفع وأيام الرخاء وطلب المثوبات الأخروية، أن يجعل رسول الله (ص) أو جمعاً من الأخيار وأولي الأمر، شفيعاً، فلا بأس في ذلك ولا ضرر فيه على أية عقيدة. ولكنه مع أقواله يجعل من السيف البتار برهاناً قاطعاً، وهذا ما لا جواب له إلا سيف بتار مثله. «١٩٠

هنا ينتهي كلامنا في هذا الكتاب، ونحمد الله على أن وفقنا لتقديم هذه الخدمة البسيطة. والكمال لله وحده. والحمد لله رب العالمين.

١٩٠ — «تحفة العالم وذيل التحفة» سفرنا مه وخاطرات ميرعبد اللطيف خان شوشترى، به اهتمام: ص. موحد. انتشارات طهوري، ص ٤٧٧.

السعر : ٥٠٠ ريال

﴿ المكتبة التخصصية للرد على الوهابية ﴾